

امين ناجي

لن نعيش ذميين...

آفاق مشرقية (1)

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
الطبعة الاولى 1979

امين ناجي

لن نعيش ذميين...

"فلن تجد لسنة الله تبديلا
ولن تجد لسنة الله تحويلا"
القرآن 43/35

المقدمة

... وانفجرت في الثالث عشر من نيسان من سنة 1975. وكأنما النار المحقونة رأّت لها مسربا في ذلك اليوم، فكان البركان الذي جرفت سوائله كل شيء في طريقها.

بين مَنْ وَمَنْ قامت هذه الحرب؟ هل صحيح أنها اندلعت بين اللبنانيين والغرباء؟ أم فيما بين اللبنانيين، ولكن عن طريق الغرباء وبواسطتهم؟

لقد ثبت أن الحرب قامت بين مسيحيي لبنان، من جهة، والفلسطينيين وحلفاءهم اليساريين اللبنانيين والدوليين، والمسلمين العرب، وفلول من الباكستانيين والصوماليين واليمنيين والأترك... بمؤازرة فعلية ومادية وغير مشروطة من قبل المسلمين اللبنانيين وبتغطية سياسية منهم، من جهة ثانية.

فالحرب في حقيقتها، كانت بين مسلمي لبنان ومسيحييه. ولكن، لماذا هذه الحرب فيما بينهم؟

لقد قيل الكثير عن أسبابها ومسبباتها. وقد تكون جميعها صحيحة بنسب متفاوتة في الحدّة والتأثير. إلا أن العنصر الأهم فيها لم يعط له حقه من التركيز والتحليل، ولم يوضع في المرتبة التي يفسّر انطلاقا منها، غير حدث وأمر وموقف. أو قل، لم يُردّ "الاعتراف" بهذا العنصر ولا الاقرار بواقعه.

سنرى أن خلفية هذه الحرب، سببها البعيد - القريب، الغائب - الحاضر، هو التجاذب العنيف القائم بين موقفين متعارضين جذريا:

موقف المسلمين الذين لا يحق لهم، ضميريا، إلا الحياة في دولة إسلامية، تسوسها الشريعة الإسلامية، ويكون حاكمها مسلما، والمسيحيون فيها "أهل ذمّة" (ولبنان، بحكم تكوينه وبموجب الهدف من تكوينه، ليس دولة إسلامية).

وموقف المسيحيين الراضين رفضا باتا بقبول نظام "أخل الذمّة". فهم يرفضون أن "يتسامح" المسلمون معهم لجهة تركهم يحيون إيمانهم في "داخل" الكنائس، وتأمينهم على أموالهم وأرزاقهم تحت حماية المسلمين وفي ذمتهم بالشروط العُمريّة أو بما يشبهها ولو بقدر قلامة ظفر. "التسامح" هذا قمة في الاستعلاء

والكبرياء. ومسيحيو لبنان رفضوه ويرفضونه أبداً، وحقهم في وطنهم وفي الحياة فيه أحراراً ومواطنين كاملي المواطنة حق طبيعي مقدس، وليس هبة ولا منة من أحد.

هذا هو جوهر المأساة.

أما ما سوى ذلك فهو امش وطوارىء تشكل عنصر تفجير لبرميل البارود الجاهز، وجو فتنة لمجتمع مفلوع في ضميره وفي تطلعاته. فمواضيع "المحرومين" و"المشاركة في الحكم" و"المحافظة على الثورة الفلسطينية" ادعاءات وذرائع فحيب. قد يزول الحرمان – إذا ما كان من حرمان – وتسوى قضية المشاركة – إذا ما كان من قضية للمشاركة – وقد يعود الفلسطينيون الى وطنهم، ومع ذلك فستبقى القضية اللبنانية عالقة ما لم نفهم موقف المسلمين ذلك، البعيد والعميق، والذي سيتخذ من أي عامل آخر في المستقبل سبباً مباشراً لانفجار جديد.

إن هذه الصفحات ترمي الى إبراز خلفية هذا الموقف، والى رواية القصة التي جسدتها بكاملها.

فالحقيقة، ولو مرة، سبيلنا الوحيد الى المستقبل المنشود.

لقد عشنا بما فيه الكفاية في أجواء النفاق والرياء والتقية...

حاجتنا الملحة اليوم هي في تسمية الأشياء بأسمائها، والتشخيص الصادق للقضية اللبنانية، بدون نية إدانة أو توزيع تهم.

ففي ضوء الحقيقة، ندعو الى التأمل والى استيعاب العبر والدروس.

أما إذا أصرّ بعض الناس – عن نية حسنة أو عن قصد خبيث – على المهزلة المبكية التي أنزلت ستار المسرحية بين بصيرتنا والحقائق، فلم يروا هنا سوى نكء لجروح الماضي، فإنهم يضعون أنفسهم في صف الرافضين مواجهة الأمور بموضوعية، والعاملين على إبقاء النار مضرمة بين المسيحيين والمسلمين.

لذا سنتساءل:

كيف تصرف المسلمون في خلال الحرب في لبنان؟ وما كان موقفهم من الدولة اللبنانية منذ إعلان "لبنان الكبير" في سنة 1920؟

وهل إن تصرف المسلمين هذا تجاه المسيحيين، كان جديداً بالنسبة للمسلمين أم أنه استمرار لواقع تاريخي طويل؟

وإذا كان كذلك، فما هي جذوره العقائدية الدينية؟ والى أي مدى تتحكم نظرة القرآن الى المسيحيين بهكذا تصرف؟

وما هي الجذور العقائدية الدينية، أيضاً، التي تلزم المسلمين بإنشاء مجتمع

سياسي إسلامي، أي دولة إسلامية، يكون المسيحيون فيه "أهل ذمة"؟

وسنلاحظ، أخيراً، فشل المحاولات الحديثة التي قام بها المسيحيون والتي

رمت الى جعل المسلمين يتخلون عن عقيدة "اللامساواة" بين المسلم وغير المسلم.

إن هذه الصفحات تأمل المساهمة في التقاء النيات الصافية على استئصال الشرّ من جذوره والقاء بصيص نور في مآهات الظلمة التي تلقنا.

الفصل الأول

لبنان ومسلموه

يوم أعلن لبنان الكبير في سنة 1920 بسعي حثيث ونشيط من قبل الغالبية من المسيحيين وتأييد أقلية من المسلمين وبتسليم من الفرنسيين، كان المسلمون بغالبيتهم العظمى، وتأييد أقلية قليلة من المسيحيين من جميع الطوائف، يعارضون بعنف وشدة الدولة الجديدة.

فالظروف والأحداث التي تسارعت على نحو مذهل في خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها، صعقت الوجدان الإسلامي. ذلك أن المسلم انتقل، في لبنان وفي البلاد المنسلخة عن العثمانيين، من وضع الحاكم والأمر الناهي في دولة مترامية الأطراف يغلب عليها النظام الإسلامي، الى وضع الغارق تحت سيطرة أجنبية "كافرة مشرقة" تحمل في طياتها، بالإضافة الى ذلك، أخطارا أخرى جمة على الإسلام والمسلمين. أليست هذه القوى الأجنبية هي نفسها التي فرضت على الدولة العثمانية ابتداء من القرن التاسع عشر "التنظيمات" و"الدستور" حيث ذكر للمرة الأولى في مجتمع إسلامي – ولو بالقول فقط – مبدأ المساواة بين المسلم وغير المسلم؟

الرفض الإسلامي

في كل المناطق المسلوخة عن الامبراطورية العثمانية، عارض المسلمون بما لا يقبل الهوادة مبدأ التجزئة الذي فرضه الحلفاء المنتصرون. وفي لبنان، وفضلا عن ذلك، كانت معارضة المسلمين تركز أيضا على شعور بأن الدولة الجديدة سيحكمها "الموارنة" بسبب علاقتهم التاريخية بالدولة الافرنسية. أو على الأقل، فإن الحكم سيكون حتما لإسلاميا. طبعاً، لم يعلن المسلمون دائماً حقيقة شعورهم هذا. فكانوا يغلفونه، غالباً، بالمطالبة بـ"الوحدة السورية" أو "الوحدة العربية".

وبسبب رفض المسلمين لدولة لبنان الكبير، أضربوا عن المشاركة في إحصاء سنة 1922 "إستتكاماً عن حمل أوراق هوية تقيدهم لبنانيين" كما يقول محمد جميل بيهم¹. ويضيف: "ومضوا (اي المسلمون) في إضرابهم هذا حتى اضطرّ الجنرال غورو أن يقنعهم بالعدول عنه، وذلك بأن يقصّ من تذاكر الهوية شطرها الأدنى الذي يشير الى أن حامل التذكرة لبناني"².

وقد رفض المسلمون أيضاً الاشتراك في انتخاب سنة 1922 للمجلس النيابي الأول في لبنان. كما رفضوا المشاركة في سن الدستور اللبناني بمقتضى قرار اتخذه أعيان المسلمين في نادي جمعية المقاصد الخيرية رداً على كتاب اللجنة النيابية المكلفة بسنّ الدستور اللبناني، وذلك في شهر كانون الثاني من السنة 1926. وكان الشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت رئيساً لهذه الجمعية.

واحتجّ النواب القائلون بالوحدة السورية على إلحاق مناطقهم بلبنان، وسجّلوا احتجاجهم في محضر جلسة المجلس عقب دخول لبنان في العهد الدستوري سنة 1926.

¹ محمد جميل بيهم: النزعات السياسية بلبنان، منشورات جامعة بيروت العربية، 1977، ص 12
² المصدر السابق

وفي دمشق، عقد مؤتمر بتاريخ 23 حزيران سنة 1928 لمناسبة انتخاب اللجنة التأسيسية بسورية، وذلك للمطالبة بالوحدة السورية. وقد قصدت الى هذا المؤتمر وفود الساحل من بيروت وصيدا وطرابلس وبعبك ووادي التيم، وساهم فيه أعضاء من مجلس لبنان النيابي وعمار وتلكلخ واللادقية وطرطوس. أما بعد إحصاء سنة 1932، فقد تقدمت جمعية إتحاد الشبيبة الإسلامية في بيروت بعريضة تطالب صراحة بالرئاسة الأولى³.

وفي المؤتمر الأول للساحل والذي انعقد في بيروت في شهر تشرين الثاني من السنة 1933، قرر المؤتمر المطالبة بضم المناطق الملحقة بلبنان الى سورية. وقد أكد هذا القرار مؤتمر الساحل الثاني في بيروت بتاريخ 10 آذار سنة 1936 لمناسبة المفاوضات التي كانت جارية بين فرنسا وسورية لعقد معاهدة تحالف. وفي كواليس هذا المؤتمر، دعا أحد المشتركين فيه، كاظم الصلح، "الى الأخذ بنظرة جديدة في المطالبة بالوحدة (السورية). وخلصتها تكييف هذا المطلب مع ضرورات كانت قائمة يومئذ، منها تسهيل مهمة "الوطنية السورية" في تحرير سوريا من الاستعمار الفرنسي ثم استمرار تعبيد الطريق أمام الفئات اللبنانية لتمضي مجمعة في تحرير لبنان كله من الاستعمار، على أن يستتبع هذه الخطة الجديدة تكريس للاهداف القومية العربية في مؤسسات أكثر شمولا ومرونة، تقوم بين البلاد العربية قاطبة، بما فيها سوريا ولبنان بشكله الراهن"⁴.

والملاحظ أن "الوحدويين" أو "الاتصاليين" (كما كانوا يسمون) كانوا يغيرون في "التكتيك" وليس في الهدف النهائي، كما كانت حالهم، أيضا، مع الميثاق الوطني في مرحلة الاستقلال سنة 1943.

الفشل في كسب المسلمين

رغم أن مشروع "المعاهدة اللبنانية - الفرنسية" سنة 1936 كان مناسبة لتأجيج نيران المعارضة ضد الكيان اللبناني في حدوده المعلنة سنة 1920، فقد كان، أيضا، مناسبة للعمل من أجل كسب المسلمين للبنان.

"ولما عازمت الدولة المنتدبة سنة 1936 أن تعقد معاهدة مع لبنان جريا على ما تفعل في سوريا، وكان لا سبيل الى عقد هذه المعاهدة مع بلد لا يعترف نصف أهله بكيانه، بذلت مساع من قبل الاستاذ اميل إده رئيس الجمهورية اللبنانية وقتئذ لانتزاع موافقة الجماعة عند المسلمين والاعتراف بالكيان اللبناني. وقد تمكن من إدراك هذه الأمنية بشكل صوري إذ أخذ موافقة بعض الوجوه في اجتماع عقد لهذه الغاية، وكانت هذه الموافقة على شروط معلومة دوتت في ملاحق المعاهدة وعرفت بالمراسلة رقم 6 و6 مكررة، وقد ساعده على ذلك أن سوريا اضطرت - تحت الرغبة الملحة بعقد مثل هذه المعاهدة التي تلغي الانتداب - الى أن تعترف بالأمر الواقع الذي قرّره عصبة الأمم أي اعتبار لبنان وسوريا دولتين تستقل الواحدة منهما

³ المصدر السابق، ص 29

⁴ عادل الصلح: حزب الاستقلال الجمهوري، دار الطليعة، بيروت، 1970، ص 122

عن الأخرى. ولكن سرعان ما بدا أثر غير مستحب في نفوس الشعب، فقد أذاعت جمعية اتحاد الشبيبة الإسلامية فوراً بياناً أعلنت فيه ثبات المسلمين على مبدأ الوحدة السورية، وكذلك المجلس القومي الإسلامي ما لبث أن شعر بأن الوعود التي قطعت ودوّنت في ملاحق المعاهدة لم تكن سوى شباك ألقيت جانبا عندما أدرك الذين نصبوها غايتهم، فثارت ثورة هذا المجلس ورجع إلى السياسة السلبية وقدم مذكرتين بتوقيع رئيسه المرحوم سليم علي سلام إحداهما إلى المسيو دلبوس ايفون، وزير الخارجية في باريس، مستشهدا فيها بفقرة من التقرير الذي تلاه الشيخ بشاره الخوري وقتئذ في المجلس النيابي اللبناني، بصفته رئيس اللجنة البرلمانية، ووجه فيه نظر الحكومة الفرنسية إلى روح القلق الذي يسيطر بصورة خاصة على الأوساط الإسلامية بسبب عدم الاستجابة لمطالبها. والمذكرة الثانية قدمها المجلس إلى الكونت دي مرتيل المفوض السامي آنذاك، وذلك في صيف عام 1937 وقد احتج بها النكول عن الوعود المقطوعة وطلب فيها الوحدة السورية⁵.

الميثاق الوطني: خذ وطالب

بقيت السلبية سياسة للمسلمين حتى إعلان الجنرال كاترو يوم 16 تشرين الثاني سنة 1941 الإستقلال اللبناني.

وفي جو التهيئة العملية للإستقلال الفعلي، إنبثقت "في غرة عام 1942" "الكتلة الإسلامية" التي "تألفت من وجوه ومفكرين وأدباء من الطوائف الإسلامية: الدروز والشيعية والسنة"⁶. وكان لهذه الكتلة موقف فعّال - خصوصا بعد تدخل رئيس وزراء مصر مصطفى النحاس باشا - في تعطيل العمل بالمرسومين 49 و50 تاريخ 17 حزيران 1943، اللذين يحددان عدد النواب بالنسبة للطوائف تحضيراً للإنتخابات العامة، ويعتبران المغتربين الحائزين على الجنسية اللبنانية جزءاً من الهيئة الانتخابية اللبنانية.

وفي أجواء ما سمي فيما بعد "الميثاق الوطني"، جرت الإنتخابات النيابية سنة 1943 وانتخب الشيخ بشاره الخوري رئيساً للجمهورية. وتشكلت الحكومة الاستقلالية الأولى برئاسة رياض الصلح. فعُدلت الدستور، وصمدت أمام تهديدات الفرنسيين.

ولم يطلّ الحادي والثلاثون من شهر كانون الأول من السنة 1946، حتى كانت الجيوش الأجنبية كافة قد جلت عن لبنان. ذفتمّ للبنان استقلاله التام.

ولكن هل بذلّ المسلمون من نظرتهم إلى لبنان وإلى الوصول إلى حكم إسلامي؟

منذ الإستقلال وحتى اندلاع الحرب اللبنانية، وفي خلالها وبعدها، ومرورا بأحداث سنة 1958 - حيث لم تكن القضية الفلسطينية قد أصبحت ذريعة للتمرد - لم يكلّ المسلمون ولم يملؤوا من التستر بغير سبب ومطلب للعمل من أجل الوحدة

⁵ بيهم، ص 13 - 14

⁶ المصدر السابق، ص 35

العربية، والتي هي إسلامية الشكل والمحتوى، كما سنرى، ولتسلم رئاسة الجمهورية كأداة تحقق هذا الهدف.

وإذا لم يكن الأمر هكذا، فلماذا قال رشيد كرامي، رئيس الحكومة اللبنانية في فترة طويلة من فترات الحرب اللبنانية، وتحت قبة البرلمان بتاريخ 23 تشرين الأول 1975: إن الميثاق الوطني وضع لمرحلة، وقد تغيرت الظروف الآن؟⁷ وهذا الرأي أكدّه المفتي الشيخ حسن خالد في لقائه مع الموفد الأميركي دين براون بتاريخ 3 نيسان 1976 عندما قال: "الميثاق الوطني هو ميثاق بين طرفين في ظل الانتداب الفرنسي. في هذه الفترة كان الوطنيون يريدون الخلاص من الأجنبي، فكان لا بد من الاتفاق السريع والخلاص بشيء مرحلي، فكان الميثاق الشفوي مبنياً على نقطتين: تخلي المسيحيين عن الحماية وتخلي المسلمين عن الوحدة العربية"⁸. وفي اللقاء نفسه، أكد المفتي وجوب تعديل الدستور "بحيث يحرص على ذكر أن لبنان جزء من الأمة العربية..."⁹

ألا يثبت هذا الكلام ما قاله محيي الدين النصولي سنة 1936: "ما لا جرم فيه أن المسلمين لا يرضون عن الوحدة بديلاً. هذه هي عقيدتهم لن تتبدل ولن تتحور ولو تبدلت الأرض غير الأرض والسماء غير السماء، فهم مطمئنون الى هذه العقيدة مؤمنون بها إيماناً شديداً"¹⁰.

حق أريد به باطل

أما تسلم رئاسة الجمهورية فكان مغلفاً بمطلب إلغاء الطائفية السياسية. وما أكثر ما استعملت هذه العبارة من قبل المسلمين واليسار المتبني ظاهرياً مطالب المسلمين والمحارب باسمها للسيطرة عليهم.

فما كان المقصود من عبارة "إلغاء الطائفية السياسية"؟ المقصود منها هو التالي:

ما دام المسلمون هم الاكثرية من حيث عدد اللبنانيين (في نظر المسلمين ودون أن يكون هناك رقم رسمي يؤيد هذا الاعتقاد)،

ولما كانت الطائفية السياسية لا تسمح لهم بالوصول الى الرئاسة الاولى، إذا، لا بدّ من التخلص من هذه العقبة عن طريق إلغاء الطائفية السياسية والادارية، فيصل المسلمون، عاجلاً أم آجلاً، الى تولي الحكم عن طريق رئاسة الجمهورية.

والملاحظ أن كمال جنبلاط قدّم الى الهيئة الوطنية للحوار في ايلول 1976 برنامج "الأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية" والذي يكتفي فيه بالمطالبة "بالغاء الطائفية السياسية في مجال التمثيل الشعبي وفي الإدارة والقضاء والجيش"¹¹.

⁷ الصحف الصادرة في بيروت، تاريخ 24 تشرين الأول 1975

⁸ انطوان خويري: حوادث لبنان، الجزء الأول، ص 265

⁹ المصدر السابق

¹⁰ جريدة "بيروت" 28 تموز 1936

¹¹ انطوان خويري: حوادث لبنان، الجزء الأول، ص 265

أما جمعية متخرجي المقاصد فقد أذاعت في 11/25 1975 بياناً طويلاً طالبت فيه، في جملة ما طالبت به، إلغاء الطائفية السياسية¹². قال البيان: "ويترتب على إلغاء الطائفية السياسية إلغاء تاماً قيام العلمنة التي لا تتعارض مع المعتقدات الدينية الأصيلة"¹³. وقد علق الناس يومئذ على "شطارة" هذه الجمعية لجهة خداع غير المطلعين من الناس. فكيف تقوم "علمنة لا تتعارض مع المعتقدات الدينية" والمعتقدات الدينية المعنية، وهي الإسلام، تقول بأن الإسلام دين وديناً؟

المسلمون مع الغريب ضد مواطنيهم المسيحيين

غير إن الذي حزّ في قلوب المسيحيين اللبنانيين، ولا يزال، هو هذا التأييد غير المشروط الذي قدّمه مسلمو لبنان إلى الغرباء وإلى اليسار الملحد، وهذه المؤازرة على قتل مواطنيهم المسيحيين وتشريدهم. لقد أيدّ مسلمو لبنان أولئك وساهموا معهم في التقتيل والتشريد عن طريق "المرابطون" ومنظمة "أمل" الشيعية "وجند الله" وسائر المنظمات والهيئات الإسلامية.

ولا لزوم للدخول في تفاصيل الهجوم على القاع ودير الأحمر وحوش بردى (والمهاجمون يصرخون: الجهاد، الجها)، وبق الياس والقدام وتعلبايا وزحله وسواها من قرى البقاع وديارها،

ولا الهجوم على بيت ملات ورحبه وبقرزلا ودير جنين وبزبينا والقبيات وعندقت وتل عباس في عكار (علما بأن أهالي تل عباس مؤيدون للياسار على اختلاف فصائله)، وما جرى في تل عباس في تشرين الأول من سنة 1975 والمهاجمون يصرخون: "الله اكبر، لا إله إلا الله"، لدليل ساطع على اضطهاد إسلامي للمسيحيين،

ولا الهجوم على الناعمة وعلى دير الناعمة وعلى الدامور، وقد علت أصوات المهاجمين: "الله اكبر، أسلم تسلم"،

ولا الهجوم على الدبية في الشوف، ولا ذبح المسيحيين في قراه إثر اغتيال كمال جنبلاط، (علما بأن الجميع عارف من قتل كمال جنبلاط)،

ولا الهجوم على عين إبل والقلية والعيشية وسواها من قرى الجنوب. هذا فضلا عن أمكنة العبادة المسيحية والأديار، والاعتداء على الكهنة والراهبات والرهبان.

ففي دير عشاش ذبح كهنة عجزة كانوا موجودين فيه. وكان المهاجمون يصرخون: "الله اكبر، لا إله إلا الله، دين الإسلام هو الأقوى، (في الثالث من أيلول 1975)،

وفي بيت ملات، قتل خادم الكنيسة (القندلفت) أمام المذبح، وفي مدرسة الآباء الكرمليين في طرابلس، كتب محتلوها على لوحة اعلانات المدرسة: "دين الإسلام هو الأقوى"،

¹² المصدر السابق، ص 455

¹³ المصدر السابق

وفي كنيسة مار جرجس للروم الأرثوذكس في بيروت، أطلق المهاجمون النار على الإرشمندريت إسكندر نصر وهو يقدم الذبيحة الالهية، وفي دير الناعمة، طلب المهاجمون الى الرهبان دّوس الصليب، وفي مستشفى مار الياس في وادي بو جميل، صرعت الراهبة فيلومين خوري بينما كانت تعالج أحد المرضى، وفي دير جنين، في عكار، أعدم كاهنان في الساحة العامة (18 كانون الثاني 1976)،

وعلى اوتستراد سن الفيل، كاد الاعتداء على المطران يوسف الخوري من قبل "فتيان علي" يودي بحياته، وقد دنست كنائس وأديرة عديدة في شمالي لبنان وفي بيروت وضواحيها وفي بعدا والمتن وفي البقاع وفي الجنوب، وكتبت على جدرانها وعلى المذابح عبارات كثيرة من مثل: الله اكبر، دين الاسلام هو الاقوى، الموت للنصارى... واغتيل مثقفون مثل كمال يوسف الحاج وهنري نقاش. وأحرقت مؤسسات ثقافية، مثل متحف سليمان البستاني في الدبيّة، ومؤسسات تعليمية وإنسانية مثل مؤسسة الأب قرطباوي...

والآن، هلا تساءلنا: لماذا تصرف المسلمون تجاه المسيحيين هذا التصرف؟ وهل له مبرر عقائدي ديني اسلامي؟ أم أنه يعود فقط الى ظروف تاريخية، كما جرى للمجتمعات المسيحية في أوروبا حيث تحاربت وتذابحت، ظاهريا، على الأقل، باسم الدين ومن أجله؟
الجواب نراه في موقف القرآن من المسيحيين.

الفصل الثاني

المسيحيون في القرآن

"... وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأْنِ مِنْهُمْ قَسِيْسِينَ وَرَهْبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ" (المائدة 82)، بدون أن يدري أكثرنا أن هذه الآية تستكمل معناها بالآية اللاحقة بها مباشرة، وأن معناها الحقيقي ندركه عندما نعرف سبب نزولها. وهذا ما سنراه بعد قليل.

انطلاقة الدعوة

عندما بدأ محمد دعوته في مطلع القرن السابع للميلاد، كان الناس في شبه الجزيرة العربية من حضرٍ وبدوٍ، ينتمون، دينياً، الى الوثنية والنصرانية (اي المسيحية) واليهودية.

وكان الواقع المسيحي ممزقاً. وعلى هذا النحو تعرّفته الرسالة الجديدة في شبه الجزيرة على أطرافها وفي البلاد التي ستحتلها في الفتح الكبير. "ومن الذين قالوا إنّنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء..." (المائدة 14). "... وأتينا عيسى ابن مريم البيّنات وايدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاتهم البيّنات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد" (البقرة 223)

الاسلام يقوم انحراف أهل الكتاب

المسيحيون واليهود، في نظر القرآن، هم أهل الكتاب، اي الذين الله لهم كتاباً مقدساً من عنده، يرشدهم ويحدّد لهم ما يؤمنون به ويعملون له ويرتدعون عنه. فالتوراة والإنجيل كتابان مقدسان بالنسبة للاسلام. والإيمان بهما واجب ليكمل إسلام المسلم. "قولوا آمناً بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والإسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون" (البقرة 136)

لذلك أمل الرسول أن يتقبّل أهل الكتاب الدعوة الجديدة قبل غيرهم بسهولة ويسر. لذا تضمّن القرآن الأسلوب المحبب والرغبة في التفاهم من أجل الاندماج في الدين الجديد. "لا إكراه في الدين" (البقرة 256). "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا، وقلوا آمنا بالذي أنزل الينا واليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون" (العنكبوت 46). "قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبدُ إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولّو فقولوا إشهدوا بأننا مسلمون" (آل عمران 64). وعلى هذا الأساس أعطى محمد ميثاقه وعهده الى يهود يثرب. ولكن هذا العهد لم يطبّق.

ومما عزز الأمل لدى محمد في قبول أهل الكتاب الدين الجديد، كون هذا الأخير يقوم ما "أدخله" أكثر اليهود والنصارى من تحريف (!) وتغيير (!) وإخفاء (!) نصوص في التوراة والإنجيل. فالرسالة المحمدية "تعيد" هؤلاء إلى الصراط المستقيم. "يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين" (المائدة 15). "قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين" (المائدة 68).

ثم يبين القرآن لأهل الكتاب ما الذي خرجوا فيه عن الدين الحق الذي أراده الله. ففي ما يتعلق بالمسيحيين تقول الآيات: "إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد. له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلًا" (النساء 171). "وإذ قال الله عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب" (المائدة 116). "قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد" (سورة الاخلاص). "يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق.. (النساء 171). والمقصود بعبارة "لا تغلوا في دينكم" أن لا تجاوزوا الحد في دينكم فترفعوا عيسى من مرتبة الرسالة النبوية إلى مرتبة الألوهة.

ومما يفرض على المسيحيين قبول الدين الجديد كون المسيح نفسه، على ما يقول القرآن، قد وعد بمجيء محمد بعده. "وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد. فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين" (الصف 6). ولفظة "أحمد" يقول الشيخ حسنين محمد مخلوف "هو علم لنبينا صلى الله عليه وسلم ومعناه: أحمد حامدين لربه. بشرت به وبرسالته الخاتمة للرسالات السماوية: التوراة والإنجيل اللذان لم يحرفا ولم يُبدلَا على لسان موسى وعيسى عليهما السلام"¹⁴.

الإسلام يكسب بعض المسيحيين

لاقت الدعوة الجديدة بعض القبول في مكة أولا، أي قبل الهجرة. ثم بعد الهجرة. وقد أحسن القرآن الكلام على الذين تقبلوا بشارة محمد. "والذين أتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك... (الرعد 36). "... والذين أتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين" (الانعام 114). "ان الذين اوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا" (الإسراء 108 – 109). "لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون

¹⁴ الشيخ حسنين محمد المخلف، القرآن الكريم ومعه صفوة البيان لمعاني القرآن، ج2، ص 428

يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر اولئك سنؤتيهم اجرا عظيما" (النساء 162).

وأهمّ كلام تحبب للمسيحيين هو ما جاء في الآيات التالية: "لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وإنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكذبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين" (المائدة 82 – 84).

يقول الشيخ مخلوف في شرحه لهذه الآيات: "لتجدنّ أشد الناس... أي لتجدنّ أشد الكفار عداوة للمؤمنين اليهود، لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم، وانهماكهم في اتباع أهوائهم وتمرتهم على التمرد، والاستقصاء الى الأنبياء، وتمكن الحسد والبغي في قلوبهم، الى حدّ استيجاب إيصال الأذى والشر الى من خالفهم في الدين. وقد جعلهم الله قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين، بل هم أعرق فيها ولذا قدّموا في الذكر عليهم. "ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى": فهم ألين عريكة وأسلس انقيادا الى الحق وفيهم من هو معرض عن الدنيا ولذاتها والتنافس فيها، ومن كان شأنه ذلك لا يحسد الناس ولا يعاديهم. والآية نزلت في النجاشي (لقب ملوك الحبشة) وأصحابه. وقيل في الوفد الذين قدموا مع جعفر ابن ابي طالب مسلمين. وقيل: في جماعة أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى عليه السلام. فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم، آمنوا به وصدّقوه فأتى الله تعالى عليهم في هذه الآية"¹⁵.

إذا، المديح الذي تكيله الآيات أعلاه للنصارى لا يطال جميع النصارى، بالمعنى المطلق، كما يعتقد بعضهم، بل هؤلاء الذين آمنوا برسالة محمد ودخلوا في الدعوة الجديدة. لذلك يكون الاستشهاد بها للبرهنة على أن الاسلام يكنّ للمسيحيين، جميع المسيحيين، وفي جميع الأزمنة، هذا التقدير والاحترام مع اعتبارهم أقرب الناس الى المسلمين، هو في غير محله، وليس مخلصا للقصد القرآني نفسه.

كفر سائر أهل الكتاب وشركهم

مقابل الذين قبلوا الدعوة الجديدة آخرون بقوا على إيمانهم، ولم يبدووا الاهتمام الذي كان الرسول ينتظره. فأخذت لهجة الآيات تتعالى من المرارة الى التهديد والوعيد. ثم أخذت تعلن صراحة كفر أهل الكتاب وشركهم.

"لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم. وقال المسيح يا بني إسرائيل إعبّدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار. لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم" (المائدة 72 – 73). "لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم. قلّ فمن يملك من الله شيئا إن أراد

أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الارض جميعا والله ملك السماوات والارض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير" (المائدة 17). "سبحانه وتعالى عما يشركون" (النحل 1). "قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وأن يعودوا فقد مضت سنة أولين" (الأنفال 38). "أن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا، أولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا" (النساء 150 - 151). "وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله. ذلك قولهم بافواهم يضاهنون (يشابهون) الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون" (يصرّفون عن الحق الى الباطل) (التوبة 30).

فالمسيحيون المؤمنون بألوهية المسيح كفار ومشركون. فهم كفار لانهم جحدوا رساله، رسالة المسيح الاساسية التي، في ظن الاسلام، قد حورّها المسيحيون وزورّوها. وهم مشركون لأنهم، في نظر الاسلام، ايضا، "اشركوا" بالله آلهة آخرين.

يقول الشيخ مخلوف: "فاعتقاد النصارى القتل والصلب كفر لا ريب فيه"¹⁶. ويقول ايضا: "فإن النصارى أشركوا بزعم الوهية المسيح"¹⁷.

وجوب قتل الكفار والمشركين

إذا كان هؤلاء المسيحيون كفارا ومشركين، فإن مصيرهم مصير الكفار والمشركين. فما هو هذا المصير؟

"فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد. فإن تابوا واقاموا الصلاة وأتوا الزكاة، فخلوا سبيلهم" (التوبة 5) "وأن طلبوا الأمان فيجب تأمينهم وإبلاغهم اليه شرط أن يسمعوا كلام الله وإلا يجب قتالهم مجددا: "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه" (التوبة 6).

"قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون" (التوبة 29). يقول الشيخ مخلوف في شرحه هذه الآية: "قاتلوا الذين لا يؤمنون": أمرٌ بقتال أهل الكتابين بعد الأمر بقتال المشركين، بسبب أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وإيمانهم الذي يزعمونه كلاً إيمان. "ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق": وهو دين الاسلام، وهو الدين الذي ارتضاه الله لعباده. "حتى يعطوا الجزية": وهي ما قدر على رؤوسهم من المال، نظير كفتنا عن قتالهم واسترقاقهم وحمايتنا لهم، من الجزاء بمعنى القضاء. أو من المجازاة بمعنى المكافأة، لأنهم يجزوننا عن الإحسان اليهم بذلك. "عن يد": عن طوع وانقياد. "وهم صاغرون": أذلاء. والدليل من أدله الله، والعزير من أعزّه الله..."¹⁸.

¹⁶ المصدر السابق، ج 1، ص 109

¹⁷ المصدر السابق، ج 1، ص 111

¹⁸ المصدر السابق، ج 1، ص 316 - 317

"يا أيها النبي جاهد الكفارَ والمنافقين واغلب عليهم وماؤهم جهنم وبئس المصير" (التوبة 73). يقول الشيخ مخلوف: "جاهد الكفار": بالقتال، "والمنافقين" باللسان والوعظ وإلزام الحجة. "وأغلب عليهم": "وشدد عليهم جميعا في الجهاد بقسميه"¹⁹.

وقد جرى في الاسلام تقليد لم يطبق دائما وهو أن "يتسامح" المسلمون مع المسيحيين فلا يقتلونهم ما دام هؤلاء يدفعون الجزية ويطيعون المسلمين ولا يفكرون بالتمرد عليهم أو بمناصرة أعدائهم.

ومع هذا "التسامح" يفرض القرآن "عزل" المسيحيين والاستتفاف عن مصادقتهم وتولييتهم أمورهم. "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء. بعضهم أولياء بعض. ومن يتولهم منكم فإنه منهم. إن الله لا يهدي الثوم الظالمين" (المائدة 51). يقول الشيخ مخلوف في شرحه للآية: "لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء": نهى الله المؤمنين أن يتخذ أحد منهم أحدا من اليهود والنصارى وليا ونصيرا، أي لا تصافوهم مصافاة الأحاب، ولا تستنصروا بهم، فإنهم جميعا يد واحدة عليكم، يبغونكم الغوائل ويتربصون بكم الدوائر، فكيف يتوهم بينكم وبينهم موالاة؟ "ومن يتولهم منكم فإنه منهم": أي من جملتهم وحكمه حكمهم"²⁰.

"يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين. أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطانا مبينا" (النساء 144).

ولا يألو القرآن جهدا من التأكيد أن الاسلام وحده هو الدين الحقيقي. "ومن يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين" (آل عمران 85). "ورضيت لكم اسلام دينا" (المائدة 3). "إن الدين عند الله الإسلام" (آل عمران 19).

هذه، باختصار، المنطلقات الدينية في نظرة الاسلام الى أهل الكتاب، ومن بينهم الى المسيحيين. وهذا يعني أن المسيحيين الذين اطلعوا على الرسالة ورفضوا الدخول فيها إنما هم كفار ومشركون.

وبمعنى آخر، إن مسيحيي لبنان، فضلا عن سائر المسيحيين، هم كفار ومشركون. والكافر أو المشرك لا يوازي المؤمن ولا يساويه. وفي ضوء هذا الموقف الديني العقائدي نفهم معاملة المسلمين للمسيحيين في خلال التاريخ، وموقع المسيحيين في الدولة الاسلامية.

¹⁹ المصدر السابق، ج1، ص 327

²⁰ المصدر السابق، ج1، ص 196

الفصل الثالث

معاملة المسلمين للمسيحيين
في خلال التاريخ

تاريخياً، أطلق اسم "أهل الذمة" على جماعة "أهل الكتاب"، أي اليهود والمسيحيين. ذلك أن يهود ومسيحيي البلاد الإسلامية (أو ما يسمى "دار الإسلام") الذين يدفعون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وتطبّق بحقهم القوانين المستمدة من الشرع الإسلامي، هم تحت حماية المسلمين وفي ذمتهم.

الشروط العمرية: اذلال واحتقار...

وانطلاقاً من ذلك نفهم "الشروط العمرية" التي يقال إنها وضعت في عهد الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب، أي في خلال الفتح الإسلامي. ويقال أيضاً إنها وضعت في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز. روى ابن عبد الحكم أن عمر كتب "أن يُختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص ويظهروا مناطقهم (جمع منطوق: ما يشد به الوسط)، ويجزّوا (جزّ: قصّ) نواصيهم (جمع ناصية. والناصية قصاص الشعر، أي حيث تنتهي نبتته من مقدمه)، ويركبوا على الأكف (الأكف: سرج الدابة)، عرضاً ولا يضربوا (ضرب على فلان الأتاوة: أوجب عليه الجزية، الضريبة) إلا على من جرت عليه المواس (عبارة تقال عن كل غلام أدرك سن البلوغ)، ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان، ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين في لبوسهم²¹.

"وطرد عمر جميع المسيحيين واليهود من شبه الجزيرة العربية، بناء على الحديث النبوي "لا يجتمع دينان في بلاد العرب". واعتبر المسيحيين في شبه الجزيرة مثل مسيحيي البلاد المفتوحة، ولم يسمح بتخفيض الضرائب عنهم²². ورفض عمر إعطاء المسيحيين الوظائف بالرغم من حاجته إلى خبرتهم. وحرّم عليهم وضع الصليبان على الكنائس"²³.

وقد ألزم عمر المسيحيين بتقديم بعض التعهدات على شكل كتاب وجهه المسيحيون إليه. وفي ما يلي بعض مقاطعه: "إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وأهلينا وأموالنا وأهل ملتنا، على أن نوّدي الجزية عن يدٍ ونحن صاغرون، وعلى ألا نمنع أحداً من المسلمين أن ينزل كنائسنا في الليل والنهار، وأن نضيفهم منها ثلاثاً، ونطعمهم الطعام، ونوسع لهم أبوابها، ولا نضرب فيها بالنواقيس إلا ضرباً خفيفاً، ولا نرفع فيها أصواتنا بالقراءة. ولا نوّدي فيها ولا في شيء من منازلنا جاسوساً لعدوكم، ولا نحدث كنيسة ولا دييراً ولا صومعة ولا قلاية، ولا نجدد ما ضرب منها، ولا نقصد الاجتماع فيما كان منها من خطط المسلمين بين ظهرانيهم، ولا نظهر شركاً ولا ندعو إليه ولا نظهر صليباً على كنائسنا ولا في شيء من طرق المسلمين وأسواقهم، ولا نتعلم القرآن، ولا نعلمه اولادنا، ولا نمنع أحداً من ذوي قربانا من الدخول في الإسلام إذا اراد ذلك، وأن نجزّ مقاوم رؤوسنا، ونشدّ الزنابير في اوساطنا، ونلزم ديننا، ولا نتشبه بالمسلمين في لباسهم ولا في هيئتهم ولا في سلوكهم ولا في نقش خواتيمهم فننقشها نقشاً عربياً، ولا نكتني بكناهم، وعلينا أن نعظمهم ونوقرهم ونقوم لهم في مجالسنا ونرشدهم في سبلهم وطرقاتهم ولا نطلع في

²¹ أنيس الصايغ: لبنان الطائفي، دار الصراع الفكري، بيروت 1955، ص 59

²² المصدر السابق، ص 59

²³ المصدر السابق، ص 60

منزلهم، ولا نتخذ سلاحا ولا سيفاً، ولا نحملة في حضر ولا سفر في أرض المسلمين، ولا نبيع خمرا ولا نظهرها ولا نظهر نارا على موتانا في طريق المسلمين، ولا نرفع أصواتنا في جنازتهم، ولا نجاور المسلمين بهم، ولا نضرب أحدا من المسلمين، ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهامهم...²⁴ وهناك تعهد آخر أرسله أهل دمشق إلى أبي عبيد، الوالي على المدينة، تطبيقاً لأوامر عمر.

هذا التعهد لا يختلف عن التعهد اعلاه. ولكن فيه أموراً إضافية، منها الإمتناع عن الإحتفال بعيد الشعانين وعن وضع الخنازير في مناطق اسلامية، وعن التبشير بالمسيحية، وعن لبس قلنسوات وعمائم ونعال شبيهة بلباس المسلمين، وعن الركوب على سروج الخيول، وعن مشاركة المسلمين في عمل إلا إذا كان للمسلمين المراقبة²⁵.

وفي احكام أهل الذمة أيضاً أن المسلم لا يبدأهم بالسلام عملاً بالحديث النبوي القائل: "لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقة"²⁶. ذلك أن "عقد الذمة اقتضى أن يكونوا تحت الذلة والقهر، وأن يكون المسلمون هم الغالبين عليهم"²⁷. وهذا ما جعلنا نفهم، كما يروي لنا أبوانا وأجدادنا، لماذا كان المسلمون يأمررون المسيحي بأن "يشمل" أي أن يسير على شمال الدرب، أو أن "يطورق" أي أن يسير على الطريق الضيق بين رصيفين، وهو مخصص، أصلاً، لجريان المياه ولنفايات الشوارع ولسير البهائم (هذا النوع من الطرق لا يزال حتى الآن في شوارع طرابلس الداخلية).

الجلجلة الصاعدة

واستمر اضطهاد الخلفاء للمسيحيين.

فقد أمر عمر بن عبد العزيز بحرق بعض رجال الدين المسيحيين. وسمح باستباحة الأديرة والراهبات، وأمر برفض شهادة الذمي ضد المسلم²⁸ ومنع المسيحيات من الذهاب إلى الحمامات²⁹، ومنع المسلمين من استخدام المسيحيين في الوظائف، وحرّض المسيحيين على المهجرة من الإمبراطورية الإسلامية إلى الخارج³⁰.

وأصرّ هارون الرشيد (سنة 807) على أن تهدم الكنائس التي بنيت بعد الفتح الاسلامي، وعلى أن يلبس المسيحيون لباساً خاصاً.

²⁴ المصدر السابق

²⁵ المصدر السابق، ص 61

²⁶ ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، دمشق 1961، ص 292

²⁷ المصدر السابق، ص 189

²⁸ الصايغ، ص 61

²⁹ المصدر السابق

³⁰ المصدر السابق، ص 60 وكما في القرن الثامن، كذلك في القرن العشرين. فقد اعترف الامام موسى الصدر، رئيس المجلس الشيعي الاسلامي الأعلى في لبنان، بأن العقيد معمر القذافي، الرئيس الليبي، طلب منه، "المساهمة في تقليص النفوذ المسيحي عن لبنان. خصوصاً القضاء على الوجود الماروني سواء بالتهجير او بالإفناء" (من حديث للإمام الصدر في شهر شباط 1978 في دكار - السنغال، نشرته جريدة "العمل" البيروتية في 1979/9/25، ص 7

وبلغ الاضطهاد في زمن المتوكل أقصاه. فأمر الذميين سنة 850 و854 "لبس الطيالة العسلية والزنانير وركوب السروج بركب الخشن وبتصيير كرتين على مؤخر السروج وبتصيير زرّين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم فخالف لونها لون الثوب الظاهر الذي عليه... ومن خرج من نسائهم فبرزت فلا تبرز إلا في إزار عسلي... وأمر بهدم بيّعهم وبأخذ العشر من منازلهم وإن كان الموضع واسعاً صيّر مسجداً وإن كان لا يصلح لأن يكون مسجداً صيّر فضاء، وأمر أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة تقريبا بين منازلهم وبين منازل المسلمين. ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي يجري أحكامهم فيها على المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين ولا يعلمهم مسلم ونهى أن يظهروا في شعائهم وأن يشملوا في الطريق وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تشبه قبور المسلمين"³¹. ووجد بين المسيحيين من لم يتحمل هذا الاضطهاد فثار عليه بشدة. وآخرون أعلنوا إسلامهم حتى ينجوا من العذاب.

ويروي يحيى بن سعيد الانطاكي أن الحاكم بأمره (996 – 1021) أحد الخلفاء الفاطميين في مصر، أمر باعتقال الموظفين المسيحيين وبهدم كنائسهم وبناء المساجد مكانها، وباللباسهم الزنانير والعمائم السود، وبمنعهم من إجراء الاحتفالات الدينية، وبنهب قبورهم وهدمها، وقتل بعض كهنتهم. وأرغمت هذه الأعمال بعضاً منهم الى إعلان الاسلام أو الهرب الى خارج المملكة الفاطمية³².

والى جانب هذه الاضطهادات الكبرى واجه المسيحيون حالات أخرى كثيرة من قسوة المسلمين. فعمرو بن العاص وعبد الملك بن مروان والمأمون والمقتدر منعوا المسيحيين من الوظائف. ومروان والرشيد والأمين والمأمون والمماليك أمروا بنهب الكنائس والأديرة وحرقتها أو هدمها. ومن الخلفاء والعمال من هدم المقابر والتماثيل والصلبان ومنع الشعائر الدينية. واحتقر ابن طولون الكنائس واعتبرها بيوت رجس. وكان ابنه خمارويه يهزأ بصورة العذراء ويستهتر بها³³.

وكانت الضرائب ترتفع وتنخفض بحسب شراهة الخليفة أو العامل، أو قناعته. وكثيراً ما كانت تشمل الرهبان والأديرة والنساء والأطفال. وكانت القوة تستعمل في الجبي. وكان المبلغ يزداد لأقل وشاية. ومن المسؤولين من أباح السلب والنهب انتقاماً. وأمر بعض الخلفاء، لتسهيل أمر جمع الضرائب، بختم المسيحيين بختم خاص. فختم في عهد عمر بن الخطاب حوالي 150 ألف مسيحي عراقي. وخام عمرو بن العاص مسيحيي مصر. ووضع سليمان بن عبد الملك الحلقات الحديدية في أيدي الرهبان. وأمر أخوه هشام برسم صورة الأسد على جسم كل مسيحي بالغ³⁴.

ولم يخل تاريخ هذا الاضطهاد من حالات إرغام على الاسلام بالقوة. فقد فعل ذلك عبد الملك بن مروان وابنه الوليد من بعده. وأمر الخليفة المهدي، العباسي، آل تنوخ باعتراف الاسلام. أما المسلم الذي يتنصر فكان يلاقي اضطهاداً كبيراً³⁵.

³¹ المصدر السابق، ص 61 - 62

³² المصدر السابق، ص 62

³³ المصدر السابق

³⁴ المصدر السابق، ص 63

³⁵ المصدر السابق

ويروي التاريخ الأهوال عما جرى للمسيحيين في زمن والي الشام العباسي صالح ابن علي سنة 759 (ثورة المنيطرة)، وبعد انحسار عهد الصليبيين في زمن المماليك في السنوات 1264 و1283 و1290 و1305.

وبقي "الذميون" يعيشون في ديار الاسلام العيشة التي تنظمها الشروط العُمريّة. وابن تيمية (تقي الدين احمد ابن تيمية: 1263 – 1328 فقيه. ولد في حران قرب دمشق) واضح في هذا المجال، فهو يقول: "أما ترك هذه الشروط العُمريّة وإهمالها واستبدال غيرها بها، رغم تلقي الأئمة لها بالقبول، فهو تهاون بأمر من جعل الله الحق على قلبه ولسانه، وتمكين لأعداء الله من إظهار كلمة الكفر والخروج عن حدّ الصغار (الذل)"³⁶.

وما من عهد من عهود الدولة الاسلامية إلا شعر النصارى فيه بأنهم يعيشون على حساب كرامتهم. فكلمة "نصراني" كانت شتيمة، والذي يقول لمسلم "يا نصراني"³⁷ أو "يا ناقوس النصارى"³⁸ كان يستحق التأديب. ولم يخطر لأحد قط في يوم من الأيام أنه يمكن أن يكون للنصارى ما لغيرهم من حقوق. ألم يثر الجاحظ في القديم لأن النصارى أخذوا في زمانه يستبون من سبهم ويضربون من ضربهم؟ وهو يضيف: "ومن حكم النبي صلى الله عليه وسلم، أن لا يساونا في المجلس، ومن قوله: إن سبوكم فاضربوهم وإن ضربوكم فاقتلوهم"³⁹.

وبقيت الشروط نفسها والذهنية عينها في زمن العثمانيين حتى انحلال إمبراطوريتهم بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى.

وقبل الكلام على العهد العثماني، لا بد من الملاحظة أن المسلمين لم يطبقوا دائما على النصارى الشروط العمرية كلها، وبحذاويرها، وفي الأمكنة والأزمنة كلها. فمن الحكام من كان يجتهد أو يستنسب أو يهمل أو يراعي ضرورة اجتماعية أو سياسية. ولكنه، في نظر الفقهاء، كان في هذا يخالف السنّة، تماما كما كان هناك من يشرب الخمر أو يلعب الميسر بالرغم من تحريمها⁴⁰. "ومن يعص الله ورسوله ويتعدّد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين" (النساء 14). وما من مرة ارتفعت فيها أصوات المطالبين بتطبيق دقيق للشروط العمرية وما تلاها، كلها أو بعضها، إلا وخضع السلطان لها وطبقها على أهل الذمّة عامة، وبصورة خاصة على النصارى الذين قلما برحوا الدواوين لاضطرار مختلف العهود اليهم في الوظائف العامة.

العثمانيون: خير خلف...

³⁶ ابن قيم الجوزية: شرح الشروط العمرية، إعداد صبحي الصالح، دمشق 1961، ص 236
³⁷ لبنان الكبير مأساة نصف قرن، سلسلة "الفضية اللبنانية"، رقم 1، ص 11. ومما يدلنا على منزلة المسيحيين في أعين الأئمة النص التالي، وهو أحد نصوص الرخصة بالدفن والتي كان لا بد للمسيحي من الحصول عليها ليدفن ميتّه: "إن الكافر قد أعلمنا أن أخاه الكافر... قد فطس وإن الأبالسة قد استلمت نفسه الشريرة وهو يتلمس الإذن بان يطمر جثته المنتنة في الأرض حتى لا تتجسّ المؤمنين رائحة هذه الجثة الخبيثة ولا تصيرهم غير اطهار يافسداها الهواء، فقد أدنا أن يطمر في مزبلته الخاصة كي ينضم الى اقاربه في الجحيم". (الخوري بطرس غالب، محامية وصديقة، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1924، ص 34

³⁸ المصدر السابق

³⁹ المصدر السابق، 12

⁴⁰ المصدر السابق

في ظل الإمبراطورية العثمانية الإسلامية لم يتغير شيء بالنسبة لأهل الذمة عموماً.

وجاءت حملات إبراهيم باشا وما نتج عنها من أحداث تفتح عيون أوروبا المسيحية على أوضاع "النصارى" في "الشرق"، وتثير في الأوروبيين "حماسة" التدخل بهدف حماية المسيحيين.

قد لا يكون هدف "الحماية" سوى ذريعة وتبرير ظاهرين يخفيان مرامي أخرى. لكن الأكد أن أوروبا التي كانت، في تلك الحقبة، تعيش أجواء الانتفاضات الثورية ومبادئ الحرية والأخوة والمساواة، عرفت كيف تعطي تدخلها ذلك بُعداً إنسانياً تحريراً.

وما كان للمظلوم والمطعون في كرامته وحرية والمصنّف، مواطناً، في درجة دنيا أن يبقى لامبالياً تجاه هذا "التدخل" أو أن يرفضه أو يحاربه. لذا اعتبر بعضهم أن عجز الأتراك عن هضم اثني عشر مليون مسيحي في الإمبراطورية كان من أسباب انهيار السلطنة⁴¹.

وبالتدخل الأوروبي لنصرة مسيحي الشرق بدأ عهد "التنظيمات" العثمانية، وقد امتد ما بين السنة 1839 والسنة 1856.

وكانت قد سبقت هذه التنظيمات بعض الإصلاحات الخارجية والهامشية في عهد السلطان محمود الثاني (ابتداء من 1826). ولكن بقي على غير المسلمين الاحتفاظ بثيابهم المميزة مع حظر استعمال القماش الخاص بالمسلمين وذلك تحت طائلة العقاب.

وفي 3 تشرين الثاني 1839 صدر خط همايوني يدخل تعديلات جديدة، وأهمها "المساواة" بين العثمانيين كافة. لكن هذه التعديلات لم تعش إلا على الورق، فقط في فترة الضغط التي مورست على الدولة العثمانية. وعندما رفع هذا الضغط في اتفاقية لندن في 15 تموز 1840، عادت الدولة العثمانية إلى ما قبل عهد التنظيمات وكأن شيئاً لم يكن. وبالأحرى القول، عاد الواقع النظري يطابق الواقع العملي.

وفي 18 شباط 1856، صدر خط همايوني آخر يعلن المساواة بين رعايا السلطان جميعاً، تأكيداً للخط السابق، ويثبت الخصائص المتعلقة بالطوائف غير الإسلامية، ويلغي بين الذميين والمسلمين كل ما يعتبر مهيناً بحق أولئك، ويسمح بحرية العبادة والدخول إلى الوظائف العامة...

أثارت هذه التنظيمات أمواجاً صاخبة من الاحتجاج في الأوساط الإسلامية، خصوصاً في دمشق. فاعتبر "الشوام" أن القانون باطل لأنه يتنافى مع الدين، واحلّوا بسبب ذلك دم النصارى بأشروا إبادتهم⁴². وكانت مذابح 1860 هناك (كما في جبل لبنان، إنما بإخراج آخر وبأداة مختلفة وتحت ستار متقن في التمويه) التعبير الحسي عن تلك الموجة الشرسة. وتجدر الإشارة إلى أن الأمير عبد القادر الجزائري، الذي

⁴¹ إدمون رباط: التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1973، ص 35

⁴² توفيق توما: الريفيون والمؤسسات الاقطاعية عند الدروز والموارنة في لبنان من القرن السابع عشر حتى 1914، بيروت 1971،

أنقذ عددا من المسيحيين من المذبحة، عاد فحكم على نفسه بالسجن مدة سنة في أحد الجوامع تكفيرا عن حمايته "المسيحيين الكفار"⁴³.

وهكذا، بقيت التنظيمات "حرفا ميتا. فهي لم تدخل لا حيّز التنفيذ الفعلي في التطبيقات القانونية ولا نفوس القيمين على السلطات ولا نفوس الأهلين، بنوع خاص. وبتدخل أوروبي أيضا أعلن في 24 كانون الأول 1876 الدستور العثماني، وهو أول دستور ذي طابع عصري يصدر في مجتمع إسلامي. فكان ذلك في عهد السلطان عبد الحميد الثاني.

أعلن هذا الدستور الحرية والمساواة المدنية والسياسية بين العثمانيين كافة تجاه القانون، كما اعترف بحرية التعليم. ولكنه نصّ في المادة الحادية عشرة منه على أن الإسلام دين الدولة، وأن الدولة تحمي حرية الممارسة الدينية لجميع المعتقدات وتبقي على الإمتيازات الدينية الممنوحة للطوائف الدينية شرط ألا يمسّ ذلك النظام العام والأخلاق الحسنة.

لم يدم هذا الدستور سوى سنتين. فقد علّق سنة 1878، بعد أن شعرت الإمبراطورية بانحسار الضغط الأوروبي عنها. وعاد كل شيء الى سابق عهده ولكن بتعصب أقوى وأعمق، فألغيت الإمتيازات الدينية الطائفية، وقمعت ثورة جزيرة كريت بقسوة بالغة، وجرت المذابح الأرمنية سنة 1895.

وبقي الأمر حتى سنة 1908، تاريخ عودة الدستور العثماني. ومع عودة الدستور، أعلن خط سلطاني من 13 بندا المساواة والحرية لجميع العثمانيين بدون تمييز في الدين أو في القومية.

ولكن الآمال سرعان ما خابت، وعاد القديم الى قدمه، وعاد أهل اذمة أهل ذمة.

وفي 13 نيسان 1909، قامت حركة معاكسة في استنبول تطالب بالعودة الى الشريعة وتطبيق مبادئ الاسلام. لكن حزب الاتحاد والترقي عاد الى مسك زمام الأمور. فأقيل عبد الحميد من منصبه بفتوى من شيخ الاسلام. وأخذ الحكم الجديد يعمل على "تتريك الإمبراطورية" حتى الهزيمة الكبرى سنة 1918.

ومسؤولو هذا الحزب أدركوا، قبل تطرفهم القومي الطوراني، أن تطبيق المساواة أمر مستحيل، أو شبه مستحيل على الأقل. ومثاله ما جاء في خطاب لطلعت بك في سالونيك ألقاه على أعضاء الجمعية الذين عقدوا اجتماعا سريّا. قال طلعت بك: "كلكم تعلمون أن الدستور ينصّ على فرض المساواة بين المسلم والكافر، وجميعكم تشعرون أيضا أن هذا أمر مثالي لا يمكن تحقيقه واقعيّا. إن شريعتنا الاسلامية وتاريخنا بجملته، وشعور المئات والألوف من المسلمين، لا بل شعور الكفار أنفسهم الذين يقاومون بعناد كل محاولة لتتريكهم، أمور تقف سدا منيعا يحول دون تحقيق المساواة الحقيقية"⁴⁴.

وكما في السنة 1895، حلت في الفترة ما بين 1914 و1919، نكبات مرعبة بمسيحيي تركية وبلاد ما بين النهرين. فلاقى عشرات الألوف من الأرمن والسريان

Les puissances étrangères dans le Levant. En Syrie et en Palestine. Par N. Verney et G. Dambman, ⁴³

Paris 1900, p 72

⁴⁴ زين زين: نشوء القومية العربية، دار النهار، بيروت 1968، ص 83

والكلدان الإضطهاد والتشريد والتهجير والموت⁴⁵. (فضلا عن المجاعة التي فتكت بالمسيحيين اللبنانيين والتي سببها الحصار التركي على جبل لبنان).
ويروي الشهود العيان أخبارا تقشعر لها الأبدان عن تفنن "الجزارين" في تعذيب المسيحيين وقتلهم: فمن التقطيع⁴⁶، الى الذبح، الى بقر البطون، الى الحرق "بزيت البترول"، الى ارتكاب الفحشاء بالنساء والفتيات...
"وأمر (رشيد والي ديار بكر) بتصوير جثث القتلى النصاري وكتب تحت تلك الصور هذه العبارة الزوربة "النصاري يعذبون المسلمين"⁴⁷. فما أشبه اليوم بالبارحة.

وفي بعض الأحيان، عندما كان المسيحيون يستغيثون بالسلطة لحمايتهم، كان الولاة العثمانيون يرسلون عددا من الجنود لتطبيب خاطرهم. ثم يطلب الولاة من المسيحيين تسليم اسلحتهم لأن السلطة موكلة بالحفاظ على أرواحهم ومسئولة عن حمايتهم. فإذا ارتاح المسيحيون الى وعود أهل السلطة وسلموا العدد القليل من قطع الأسلحة الموجودة لديهم (وقليلا ما كان بحوزتهم سلاح، وهو قديم العهد)، انقضت عليهم المهاجمون وفتكوا بهم. وفي بعض الحالات كان المسيحيون يخيرون بين الدخول في الإسلام أو الموت.

الحقوق الكاملة للمسلم وحده

بعد الحرب العالمية الأولى، شعر المسلمون في بلاد العربية المشرقية بضربة تهزّ كيانهم. فبعدما كان الحكم إسلاميا، وكانوا هم أولياء أمور أنفسهم، إذا ببلادهم يحتلها ويحكمها الأوروبي "المسيحي الكافر المشرك".
باستثناء لبنان، كان الحكام في بلاد العربية - بعد الأجانب - من المسلمين. ودساتير دولهم تنصّ على أن الاسلام دين الدولة، أو، أقله، اليوم، أن الشريعة الاسلامية مصدر أساسي للتشريع. وفي كل الحالات النتيجة واحدة.
والذهنية بقيت إياها.

المسلم هو المواطن الكامل المواطنة. وغير المسلم ذمّي. وهو ذمّي، على الأقل، في النظرة اليه وفي اسلوب التعامل معه.

ونذكر أن المفوض السامي الفرنسي على لبنان وسورية أصدر بتاريخ 13 آذار 1936 القرار رقم 60 ل.ر. واكمل هذا القرار بأخر بتاريخ 18 تشرين الثاني 1938 رقمه 146 ل.ر. وهذان القراران ينظمان أوضاع الطوائف الدينية.
وأصدرت جمعية العلماء بدمشق بيانا شديدا للهجة ضدهما. وفي ما يلي أهم ما جاء فيه:

"إن جمعية العلماء بدمشق قد راعها ما قرأته في الصحف المحلية والنشرة الرسمية من نظام الطوائف ذي الرقم 60 المؤرخ في 13 آذار 1936، والقرار

⁴⁵ الخوري اسحق ارملة (شاهد عيان): القصارى في نكبات النصارى، الطبعة الأولى 1919، أعيد طبعه باللاؤفست سنة 1971
⁴⁶ وكأئنا عملهم كان وقتنذ (وهذا ما تبين أيضا في الحرب التي سادت لبنان) تطبيقا للآية القرآنية: "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع أيديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض" (المائدة 33). والقطع من خلاف يعني: اليد اليسرى والرجل اليمنى والعكس...
⁴⁷ القصارى في نكبات النصارى، ص 149

المعدل لبعض مواده ذي الرقم 146 المؤرخ في 18 تشرين الثاني سنة 1938 الصادرين عن المفوضية العليا - ذلك لما تضمناه من الأحكام المخالفة لكتاب الله تعالى الذي يتمسك به المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها ولا يرضون عنه بديلا من نظم وقوانين وقرارات مخالفة لأحكامه ونصوصه الدنيوية والأخروية ويبدلون أرواحهم وأولادهم وأموالهم في سبيل المحافظة عليه وتأييد أحكامه التي يعتقدون أن في اتباعها سعادتهم الدنيوية والدنيوية، فرأت الجمعية من واجبها الديني أن تبين بعض ما جاء في هذين القرارين مخالفا لأحكام التشريع الإسلامي.

"وها نحن اولا نلخص ما جاء فيهما مع بيان لمخالفته لتكون الأمة على بينة من أمر دينها:

"1- إن المادة الأولى من القرار الأول اعتبرت المسلمين في دارهم طائفة كبقية الطوائف في البلاد السورية التي تريد السلطة أن تجعلها هدفا للوصول الى غايتها التي ترمي اليها. مع أن ذلك مخالف للواقع، ولقيود الاحصاء المثبتة أن البلاد السورية هي بلاد إسلامية تقطنها أكثرية مسلمة..."

"2- ...

"3- جاء في المادة 11 من القرار المذكور أن كل من أدرك سن الرشد وكان متمتعا بقواه العقلية يمكنه أن يترك أو يعتنق طائفة ذات نظام شخصي معترفا بها. ومعنى هذا أن لكل واحد من المسلمين أن يترك دينه ومعتقده متى شاء وكيفما شاء، حسبما يسيّره خواه وتسوّل له نفسه. وهذا مما لا يجوزّه الدين الإسلامي الحنيف بوجه من الوجوه وهو يعاقب المرتدّ عن دينه بالقتل في الدنيا وتخليده في النار في الدار الآخرة.

"وأما ما جاء في الدستور السوري من أن حرية الإعتقاد مطلقة - فلا يراد منه إلا أن لجميع الطوائف أن يمارسوا معتقداتهم وشعائر دينهم بحرية تامة.

"من أجل ذلك كله - تحتج "جمعية العلماء بدمشق" والمسلمون كافة على هذا القرار المخالف لأحكام دينهم الحنيف..."⁴⁸

ومنذ 1936، كانت الاحتجاجات على القرار الأول قد توالى في سورية ولبنان. في سورية تولى رئيس الحكومة عطا الايوبي تقديم الإحتجاج رسميا في كتاب رفعه الى الكونت دي مارتيل في 20 ايار 1936. وفي بيروت، تولى هذه المهمة المفتي الشيخ توفيق خالد في كتاب رفعه الى المفوض السامي في 7 ايار 1936.

ولهذا السبب صدر عن المفوض السامي القرار رقم 53 ل.ر. تاريخ 30 آذار 1939 يوقف العمل بالقرارين 60 ل.ر. و146 ل.ر. بالنسبة للمسلمين فقط. والمسلمون المعنيون هم: السنة والشيعية والعلويين والدروز والإسماعليون.

وفي الحادثة التالية مغزى عميق:⁴⁹

في العام 1933، إعتنق المسلم يوسف شحاده، من حمص، الديانة المسيحية. فطلب تصحيح تذكرة نفوسه وتدوين مذهبه الجديد في سجل النفوس. لكن طلبه قوبل

⁴⁸ جريدة "البشير"، 14 شباط 1939، العدد 5728

⁴⁹ وردت في كراس: "لبنان وطن قومي للنصارى في الشرق الأدنى" (لم يذكر اسم المؤلف ولا تاريخ نشر الكراس)، ص 38 - 41

بالرفض. فراجع المندوب الفرنسي بدمشق. وهذا الأخير طلب إيضاحاً عن القضية، وذلك بموجب المادة 15 من الدستور السوري المطابقة لنص وثيقة الإنتداب وروح جامعة الأمم. فردت الحكومة السورية عليه، وكان يرئسها حقي العظم، بالرسالة التالية:

"الرقم 3564 – 1

"في 22 أيار سنة 1933

"من رئيس مجلس الوزراء

"الى السيد المستشار مندوب المفوض السامي في الجمهورية السورية،

"رداً على كتابكم رقم 17 والمؤرخ في أول نيسان 1933، ليّ الشرف بأن أفيدكم أن الشرع الإسلامي يقضي بالاقتصاص من المسلم الذي يعتنق ديانة أخرى: فهو يأمر بإعدامه.

"أما المادة 15 من الدستور فقد أقرت حرية المعتقد المطلقة لكل السوريين واحترام الأديان كلها، وضمان الممارسة الحرة لكل الطقوس ولكل المعتقدات، بشرط أن لا يشوش الأمن العام...

"بناء على ما تقدم،

"فإن الاعتراف الرسمي من قبل الحكومة بتبديل المذهب، وذلك بتدوينه في سجلات النفوس، يعتبر مخالفة فاضحة للشرع الإسلامي، ذلك الشرع الذي قضى الدستور باحترامه.

:ومن ناحية أخرى، أرى من واجبي لفت نظركم الى حقيقة راهنة، أي أنه إذا أُجيب الى طلب يوسف شحاده نثير عاصفة هوجاء من الغضب والإحتجاجات بين صفوف الشعب الإسلامي".

وهناك أمور أخرى. منها، وعلى سبيل المثال لا الحصر، التساؤل عن سبب هجرة السريان الكثيفة الى لبنان من العراق، وهجرة الأرثوذكس السوريين الى لبنان منذ بدء سلسلة الانقلابات سنة 1949، وتشريع جمال عبد الناصر في مصر الذي يمنع المسيحيين من تدريس اللغة العربية والتاريخ حتى في مدارسهم. ألا يعني هذا التشريع أن المسلم وحده مواطن كامل المواطنة، وأن اللغة العربية، اللغة المقدسة، لغة القرآن، لا يجوز أن "يدنّسها" الكفار والمشركون؟

في كل ما تقدم، ظهر أن المسلمين كانوا يتصرفون إنطلاقاً من السلطة بواسطتها وباسمها، والتي تقوم على الدين الإسلامي وملهماته. فهل من الضروري أن يكون المجتمع السياسي للمسلمين مجتمعاً تسوسه الشريعة الإسلامية؟

الفصل الرابع

الإسلام دين ودولة

من المسلمات السائدة أن الإسلام دين ودنيا معا. المسلمون والمستشرقون والمطلعون بما فيه الكفاية على القرآن يقطعون بهذا الأمر. وليس من يخالفهم فيه سوى المكابرين أو الذين يجهدون طاقتهم للخروج من أحكام القرآن، متبعين ما يناقضه أو ينفيه، مختارين إتجاها آخر في الحياة يقوم على أسس أخرى ومرتكزات مختلفة.

والسبب الجوهرى في الارتباط العضوي بين الشأنين الدينى والدنيوي، وفي رفض الإسلام الفصل بينهما، أو حتى في إقامة نوع من الاستقلالية بين حقليهما، هو أن العبادات وأعمال الإنسان الدنيوية كل لا تجزؤ فيه. فالأعمال الدنيوية طريق الآخرة. فكيف يفصل الطريق عن محجته؟ أليست المحجة هي نهاية الطريق؟ أليس الطريق هو المحجة بالقوة؟

إن من يسير بموجب أوامر الله ونواهيهِ المدوّنة في "الكتاب"، أي إن من يحقق أحكام الشريعة كما أنزلت على الرسول، يكون قد اتقى الله واجتنب المعصية والتزم صالح الأخلاق والأعمال فاكتسب الجنة. فلا نستغرب، بالتالي، إذا ما أفاض القرآن بمثل ما أفاض به من كلام عن الحياة الدنيا. إنها موضوع جوهرى فيه وتكاد تشغل الحيز الأكبر منه.

والحركة جدلية في الإسلام بين موضوعي الدين والدنيا. فاعتماد الترداد في الوعيد والعذاب في النار، إنما هو وازع للإنسان يزرعه عن الشر والإثم. وارتداع الإنسان في هذه الحياة الدنيا عن كل ما هو حرام وقيامه بالأعمال الصالحات إنما هو سبيل الوصول الى الجنة والخلود فيها.

ومن أجل تهيئة الظروف والأجواء كافة التي تتيح للمسلم أن يحيا إسلامه كاملا، لا بدّ من أن تكون السلطة السياسية أداة الدين، لا بل جزءا منه. وهكذا نفهم لماذا الإسلام دين ودنيا وسياسة واجتماع وأخلاق ونظام، بقدر ما هو دين وإيمان وعقيدة وآخرة.

الدولة فى عهد النبى وبعده

إن النبى مارس، فعليا وعمليا، مهام الدولة والسلطان. فهو الحاكم والقاضى والقائد الحربى والإدارى والإجرائى...

غير انه فى سلوكه كله لم يكن الا "المنقذ" لإرادة الله. والله وحده هو المشترع. "إنّا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله... (النساء 105). "وأن أحكم بينهم بما أنزل الله... (المائدة 49). "ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعملون" (الجاثية 18)

والدولة الإسلامية ليست محصورة فى عهد النبى. إنما مستمرة أبدا. وإن ما أقره القرآن بهذا الشأن مطلق وغير محدد بزمن. وهو يلزم المسلمين بإقامة الحكم الإسلامى وممارسة مختلف شؤونه أينما كانوا وحيثما وجدوا. "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا" (النساء 59).

"ولو ردّوه الى الرسول والى اولي الامر منهم لعلمة الذين يستنبطونه منهم" (النساء 83). "ومن يطع الرسول فقد أطاع الله" (النساء 80).

ومن المعلوم ان طاعة الله تأتي عن طريق حفظ وصاياه والالتزام بأوامره ونواهيه. هذه الوصايا والأوامر والنواهي واردة مفصلة دقيقة في القرآن. وطاعة النبي تكون بالنزول عند أحكامه وتنفيذها وقبول شروحه للعقيدة وتنفيذ توصياته واتخاذها قدوة. وكل ذلك وارد في الأحاديث.

أما أولو الأمر فهم، كما يقول الشيخ حسنين محمد مخلوف، "أمراء الحق وولاية العدل من المسلمين أو العلماء المجتهدين"⁵⁰ والقول الفصل في وضع حدّ لأي خلاف يقع فهو الله (في القرآن) والرسول (في الأحاديث). فالقرآن والأحاديث معيارا الايمان والأحكام.

وقد حذر القرآن المسلمين من الخروج على أحكامه بعد موت النبي، وحثهم على متابعة الطريق. "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين" (آل عمران 144).

ويقينا من المسلمين بوجوب الاستمرار في الحكم بموجب الشريعة الإسلامية، فقد سارعوا بعد موت النبي وانتخبوا خليفة له. وهكذا...

ورئيس المسلمين لا يكون إلا مسلمًا: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم". لفظة "منكم" واضحة كل الوضوح. فهي تمنع المسلمين من الخضوع لغير المسلم.

وعلي عبد الرازق نفسه – وهو من هو في مجال محاربة النظرية الداعية الى الخلافة في الاسلام والى المزج بين الاسلام كرسالة دينية ووحدة المسلمين السياسية الدنيوية – لم يتمكن من أن ينفي على نحو قاطع عن الآيتين 59 و83 من سورة النساء المذكورتين أعلاه أنهما "... تدلان على أن للمسلمين قوما منهم ترجع اليهم الأمور"⁵¹.

والقرآن شدّد كثيرا على هذا الأمر. وأكثر من ذلك. لقد منع القرآن المسلمين من موالة غير المسلمين وموادتهم، سواء أكانوا مشركين أو كتابيين، أقارب أو أبعاد، وهما كانت البواعث والظروف والاعتبارات.

"لا يتخذ المؤمنون الكافرون أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير" (آل عمران 28). ويلاحظ أن الآية تسمح للمسلم بالتظاهر بقبول تولية غير المسلم إذا كانت ظروف القاهرة تفرض ذلك. فالتقية، إذا، ليست محصورة بمذهب إسلامي دون آخر، بل هي وسيلة نصح الله بها حيث لا مجال لسواها.

"يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين" (المائدة 51). يقول الشيخ مخلوف: "نهى الله المؤمنين أن يتخذ أحد منهم أحدا من اليهود والنصارى وليا

⁵⁰ مخلوف، ج1، ص 155

⁵¹ علي عبد الرازق، الاسلام وأصول الحكم، مطبعة مصر، سنة 1925م. ورد هذا النص في الصفحة 142 من مجلة "الطليعة" المصرية، العدد 11، السنة السابعة، نوفمبر 1971م، حيث ثبتت كتاب "الاسلام وأصول الحكم" بنصه الكامل في باب "وثائق".

ونصيرا، أي لا تصافوهم مصافاة الأحاب ولا تستنصروا بهم، فإنهم جميعا يد واحدة عليكم، يبغونكم الغوائل ويتربصون بكم الدوائر. فكيف يتوهم بينكم وبينهم موالاة؟⁵²

القوتلى على حق

يو نشر حسين القوتلى، المدير العام لدار الإفتاء، مقاله الشهير⁵³، قامت قيامة المسيحيين عليه، بينما هو لم يقل سوى الحقيقة المجردة.
قال القوتلى:

"هناك موقف واضح في الاسلام هو أن المسلم لا يمكن أن يقف من الدولة موقف اللامبالي، وبالتالي لا يمكن أن يكون موقفه من الحاكم والحكم موقفا مائعا يرضى بأنصاف الحلول. فإما أن يكون الحاكم مسلما والحكم إسلاميا فيرضى عنه ويؤيده، وإما أن يكون الحاكم غير مسلم والحكم غير إسلامي فيرفضه ويعارضه ويعمل على إلغائه، باللين او بالقوة، بالعلن او بالسر.

"هذا موقف واضح، لأنه موقف مبدئي هو في أساس الإسلام، واستطرادا، هو في أساس عقيدة المسلم. وإن أي تنازل عن إسلامه ومعتقده، ذلك أن إقامة الدولة، كما يقول مفكرو الاسلام، والاضطلاع بالحكم والسلطة جزء ضروري من الإسلام لا يقوم إسلام المسلمين إلا به.

"إن ذلك يعود الى سبب منطقي هو أن الإسلام نظام كامل، وموقف شامل، يضع الأسس والمبادئ لمواقف الإنسان كلها من الله والكون والإنسان. ولما كانت الدولة مؤسسة خاصة "بالإنسان" فلقد كان للإسلام فيها رأي وموقف، ذلك أن الدولة هي أساس الممارسات الإجتماعية والفردية تخطط لها وتوجهها وتسوسها متأثرة في ذلك بمعتقدات الحكام وأنظمة الحكم. وعليه فإنه بمقدار ما تكون الدولة الإسلامية تكون الرعية مسلمة ومحافضة على دينها، ممارسة لمعاملاتها وعباداتها، مراعية لحقوق الله وأحكامه. والعكس صحيح.

"المسألة في الواقع ليست مسألة تعصب أو تنعير طائفي... المسألة بكل بساطة "أن هذا هو الإسلام". والمسلمون لم يأتوا بهذا الدين من بيت أبيهم ليغيروا فيه أو يبدلوا منه، وإنما هم يعتقدون بأنه أنزل على نبيهم هكذا دينا ودولة، للفرد والمجتمع، فهذه هي سنة الله "ولن تجد لسنة الله تبديلا".

"كذلك الأمر على صعيد العقيدة، فإن الإسلام يرى أنه لا يمكن ممارسة العقيدة دون الحكم، وإذا كانت العقيدة مجموعة من القيم الروحية والمثل الأخلاقية يتوجه بها المسلم في نظره الى الله وفي علاقته بالكون والانسان، فإن معنى ذلك أنه ينبغي أن تكون لديه الوسيلة "السياسية" لتمكين هذه القيم والمثل في مجتمعه، لتتمكن في نفسه. وهنا يأتي دور "الإعلام الاسلامي" و"الاقتصاد الاسلامي" و"التربية الاسلامية" و"الجهاد الاسلامي"... أي الدولة الاسلامية التي من دونها لا تتم عقيدة

⁵² مخلوف، ج 1، ص 196
⁵³ جريدة "السفير" البيروتية، تاريخ 18 آب 1975

المسلم. وكذلك الحال على صعيد الأحكام، وأعني أحكام الحدود بشكل خاص، كحدود: قطع يد السارق ورجم الزاني وقتل القاتل. وعلى صعيد الفرائض، كفریضة الزكاة وفريضة الجهاد، فهذه الحدود والفرائض لا يمكن أن تستقيم كلياً إلا في ظل دولة الإسلام وحكم المسلمين!".
وأكثر من ذلك.

فإن من واجب المسلمين الجهاد من أجل مساعدة إخوانهم في الدين. "وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً" (النساء 75). فهل يكون هذا "الواجب" من الأسباب التي جعلت المسلمين "العرب" و"غير العرب" طرفاً مباشراً في الحرب ضد المسيحيين في لبنان، منذ العام 1975، ومن أجل إقامة حكم إسلامي فيه؟

ميزانان ومكيالان

في ضوء ما ورد، نفهم لماذا انفصل مسلمو الهند وانشأوا دولة "الباكستان"، ولماذا يصرّ القبارصة الأتراك على رفض الحاكم القبرصي اليوناني (خصوصاً يوم كان رئيس قبرص مطراناً!!!) وعلى الانفصال عن القبارصة اليونان، أو، على الأقل، إقامة حكم ذاتي لهم في الجزيرة.

كذلك نفهم موقف مسلمي الفلبين الذين تساعدهم ليبيا من أجل الاستقلال، أو على الأقل، أيضاً، ولربما مرحلياً، لإقامة حكم ذاتي لهم. وكذلك نفهم موقف مسلمي إرترية في إثيوبيا. فهم يطالبون بإنشاء دولة مستقلة لهم. والعالم العربي الإسلامي يشد أزهرهم.

وما يجوز لمسلمي قبرص ومسلمي الفلبين ومسلمي إرترية لم يُجزّ لمسيحيي بيافرا في نيجيريا ولا لمسيحيي جنوب السودان. فمسيحيو بيافرا الذين طالبوا بالاستقلال وحاربوا من أجله هم إنصاليون، يجب محاربتهم حتى إخضاعهم. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، استعمل مسلمو نيجيريا قائداً عسكرياً مسيحياً، ثم انقلبوا عليه بعد أن تحققت الغاية من استعماله.

وإذ طالب مسيحيو لبنان بنظام كونفدرالي أو فدرالي أو كانتوني أو بلامركزية واسعة للبقاء على وحدة لبنان في حدوده الدولية، والتقليل من عناصر الصدام والاصطدام فيما بين اللبنانيين، فهم "إنصاليون"⁵⁴ و"انصاليون"⁵⁵ و"تقسيميون". لماذا؟ لأن في ظلّ مسلمي لبنان أنهم أكثرية عددية. وفي موضوع الأكثرية والأقلية يقول الدكتور عمر فروخ: "ويوم يقول النصارى إنهم عرب ويتصرفون كعرب، يصبحون عندئذ مثلنا. ولكن عليهم أن يتصرفوا كأقلية بالمعنى الديمقراطي. تماماً كما يتصرف البروتستانت كأقلية في فرنسا. ممثل الأقلية في انكلترا مثلاً لا يستطيع

⁵⁴ لم يطلق المسلمون لفظة إنصالي إلا على المسيحيين اللبنانيين الذين يرفضون أن يكونوا أهل ذمة. أما المسيحي الراضي بذلك (أو الذي يخيل إليهم أنه راض بذلك) فليس إنصالياً.

⁵⁵ "الانصاليون" لفظة أطلقت على المسيحيين اللبنانيين الذين رفضوا أو يرفضون الدخول في وحدة سورية أو وحدة عربية. أما دعاة الوحدة فكانوا يسمون "الاتصاليين".

أبداً أن يصير ملكاً. فمسألة مكانة النصارى لها وجهان: وجه ديني ووجه سياسي. الكل متساوون بالقيمة من حيث الديانة. أما في السياسة فالحكم للأكثرية⁵⁶.
على هذا، وبموجب النظام الديمقراطي، فإن الحكم للمسلمين على "كل" لبنان وليس على جزء منه. فكيف يتنازلون عنه؟ الأكثرية العددية "المفترضة" تجيز لهم تولي الحكم. لكن الأكثرية إياها لا تجيز للقارصة اليونانيين تولي الحكم في جزيرتهم.

الأخوة ودار الإسلام

يجدر الانتباه إلى ناحيتين:

الأولى، أن القرآن لم يتضمن شكلاً معيناً محدداً للدولة. فقد أعطى الخطوط العامة لها، وترك للمؤمنين فيما بعد تطبيقها على نحو لا يخالف تلك الخطوط. والثانية، أن الإسلام لم يأمر صراحةً بوجود إنشاء دولة واحدة شاملة لجميع المسلمين. كما لم يمنع ذلك البتة. المهم أن تكون الدولة الإسلامية، والحاكم مسلماً. لقد اعتبر القرآن المؤمنين جميعاً أخوة. "إنما المؤمنون إخوة" (الحجرات 10). واجبه أن يتضامنوا ويتعاونوا لما فيه خيرهم وخير دينهم. ومن الواجب إصلاح ذات البين بينهم إن هم اختلفوا.

يقول أبو الأعلى المودودي، وهو باكستاني: "أليس الأساس الذي أقيم عليه نظام الاتحاد والاجتماع في الإسلام، هو أن من آمن بالقرآن ورسالة محمد، هو مسلم وأن المسلمين كلهم أفراد أمة واحدة أو أعضاء جسد واحد، إذا اشتكى واحد منهم تداعى سائر أعضائه بالسهر والحمى...؟"⁵⁷

على هذا، فإن مفهوم الوطن - وهو المرتكز الأساسي لبناء أي وطن - غير وارد في الإسلام. فمن القواعد العامة التي نادى بها رسول الإسلام "أن الولاء للأمة يحل محل الولاء للقبيلة"⁵⁸. والأمة هي جماعة المسلمين حيثما حطت رحالها. وهذه القاعدة تفسر كيف أن المسلم اللبناني يطلق النار على الجيش اللبناني انتصاراً للفلسطيني المعتدي والذي يعتبره المسيحي اللبناني لاجئاً وغريباً. ذلك "أن الأخوة الدينية هي أساس النظام الاجتماعي"⁵⁹، كما أنها تفسر كيف أن المسلم يؤثر استعمال عبارة "دار الإسلام" أو "دار السلام" وهي ما يساس من بلدان بموجب الشريعة الإسلامية⁶⁰.

وكتب عبد الرحمن عزام باشا، الأمين العام سابقاً لجامعة الدول العربية، في كتابه، "الرسالة الخالدة"، يقول: "فالمؤمنون في جميع أطراف الأرض إخوان لا تفرقهم الاوطان ولا العصبية ولا المذاهب ولا المنافع ولا الخوف ولا المنعة ولا العبودية ولا سبب من الأسباب. للمسلم حق الأخوة على المسلم أينما حلّ وأينما كانت

⁵⁶ من مقابلة مع السيد تيودور هنف عام 1970 نشرت في أطروحة الدكتوراه التي كان يعدها السيد هنف. ذكرت في كراس: "لبنان الكبير مأساة نصف قرن"، القضية اللبنانية، ص 13

⁵⁷ أبو الأعلى المودودي: الحضارة الإسلامية، أسسها ومبادئها، ترجمة محمد عاصم الحداد، دار العربية، الطبعة الثانية، ص 199،

⁵⁸ صبحي الصالح: النظم الإسلامية، الطبعة الثانية، عام 1868، دار العلم للملايين، ص 255

⁵⁹ المصدر السابق

⁶⁰ دائرة المعارف الإسلامية، 130/2 - 131

الدار. فلا جنسية غير الجنسية المشتركة التي يكفي لثبوتها شهادة أن: لا اله إلا الله وأن محمدا رسوله". ثم يقول: "فوطن المسلم ليس له حدود جغرافية، فهو يمتد مع العقيدة بل هو في الحقيقة وطن معنوي كما أن الدين أمر معنوي... والمسلم أخو المسلم أينما كان، جاوره أم تباعدت به الأرض، والمسلم أينما حل في دولة اسلامية فقد حلّ في وطنه..."⁶¹

إن هذا الارتباط العضوي بين الدين والدنيا في الاسلام والذي كان نظام "أهل الذمة" واحدا من نتائجه المنطقية، لا يمكن إلا أن يثير ردة فعل عكسية، أو ردات فعل من غير نوع وعلى غير صعيد، من قبل الذين عانوا منه.

وهذا ما جرى في لبنان إبتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فضلا عن ردات فعل سابقة، في حقب عديدة سابقة، كان لكل منها ظروفها التاريخية وأساليبها الخاصة في المعالجة.

فمع انتشار الافكار الثورية الاوروبية في لبنان عن طريق مدارس الاساليات المسيحية وبعثاتها الثقافية والتبشيرية،

ومع ترداد أصداء التدخل الاوروبي في شؤون السلطنة العثمانية بهدف حماية الاقليات المسيحية، وأصداء تملل المسيحيين في أوروبا العثمانية وانتفاضتهم،

بدأ تحرك نخبة من "أهل الذمة" في لبنان لتحرير الواقع المجتمعي في المشرق الاسلامي من كل ما يتعارض ومبادئ الحرية والمساواة والأخوة والعدالة... وسلكت من أجل ذلك سبيلا إيجابيا يرتكز على "وعي الذات" وتحريرها من الداخل. فكانت "العروبة"، في بادئ الأمر.

ولكن...

⁶¹ عبد الرحمن عزام: الرسالة الخالدة، القاهرة، ص 105، 141

الفصل الخامس

وهم العُروبة

يذكر المؤرخ الدكتور زين زين على لسان أحد "الذميين" أنه "كان في لبنان جماعة صغيرة من الشبان الذين ينتمون الى هذه "النخبة المفكرة" – وجلهم من النصارى الذين درسوا في الكلية السورية الإنجيلية" (تغير اسمها فيما بعد وأصبح "الجامعة الاميركية في بيروت"، ومنهم ابراهيم الحوراني ويعقوب صرّوف وإبراهيم اليازجي، وفارس نمر وشاهين مكارياوس) – تطالب أولاً بتحرير لبنان من الحكم التركي. فأنشأوا لهم حوالي 1876 "جمعية ثورية سرية" وراحوا يجتمعون مساء عند الشاطئ الصخري في مكان اسمه الروشة في رأس بيروت للتداول والتشاور في أنجح الوسائل لتحقيق أهدافهم. وكان أخطر ما أقلق نفوس أولئك الشبان هو احتقار الأتراك لهم، واعتبارهم أدنى شأنًا منهم، مما جعلهم يشعرون بالإهانة. غير أن العربي المسلم عندما كان يتكلم عن الامبراطورية العثمانية كان يستطيع أن يقول إنها امبراطوريته، لأنها كانت إمبراطورية إسلامية. والواقع أن المسلم لم يكن يشعر بأنه غريب في وطن غريب عنه، بل كان الامر على نقيض ذلك. أما المسيحي فكان يشعر دوماً بأنه واحد من "رعايا" السلطان وأن الحكومة التركية لا يمكن لها أن تكون حكومته.

"لكن لم ينقض زمن طويل حتى شعر أولئك الشبان النصارى أنهم إذا أرادوا بلوغ هدفهم ينبغي لهم أن يتعاونوا مع المسلمين لكي يكونوا لهم سندا وعونا. فقد كان من المحتم عليهم أن يظهروا أمام الأتراك كجبهة واحدة مترابطة. ولم يكن هناك من قاسم مشترك بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب سوى "العروبة". فالعروبة، كشعار، كان في وسعها أن تثير في نفوس العرب شعورا بالقومية، وأن توحد أيضا بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب الناقمين على الأتراك. وعلى هذا الاساس إقتنع الاعضاء المسيحيون في الجمعية الثورية السرية أن السبيل الوحيد للتحرر من الحكم التركي والسبيل الوحيد للمساواة بينهم وبين المسلمين هو تأليف جبهة عربية موحدة تقوم على فكرة العروبة وتستطيع أن تقف في وجه الأتراك. ولجأ هؤلاء الاعضاء المسيحيون الى خطة أخرى هي إدخال بعض وجهاء المسلمين في المحافل الماسونية في بيروت. وكان بعض الأعضاء البارزين في هذه الجمعية السرية قد انضم الى عضوية هذه المحافل الماسونية، للانتماء الى الجمعية السرية. وفي الواقع انضم عدد قليل من المسلمين الى المحافل الماسونية، وعلموا بوجود جمعية سرية. وقد اتفق الجانبان، المسلمون والمسيحيون، على محاربة الظلم التركي واستبداده على أساس العروبة، وعلى مبدأ المساواة بين العرب والأتراك. غير أنهم اختلفوا على الهدف الأعلى للجمعية وهو طرد الأتراك من ولاية سوريا التي كانت تشمل آنذاك سنجق لبنان المستقل ذاتيا. وبذلك أضعوا، كما سرّح فارس نمر باشا للمؤلف، "سانحة قلّ أن وجود الزمان بمثلها". وفي زمن ما يقع بين 1882 و1883 أوقفت هذه الجمعية السرية الثورية – التي ظلت تعمل سرا دون أن يعلم أحد بها – نشاطها، وأحرقت وثائقها، واعتبرت نفسها جمعية منحلة. وبعد سنوات قليلة تأسست جمعيات سرية أخرى"⁶².

واستمرّ المسيحيون في مسعاهم، ومن بينهم شخص ماروني يدعى نجيب عازوري، نشر في باريس سنة 1905 كتابا باللغة الفرنسية بعنوان "يقظة الأمة العربية في أسية التركية". وأصدر بعد ذلك مجلة شهرية لم تعش طويلا اسمها "الاستقلال العربي". وكان عازوري شديد الميل الى فرنسة والى حضارتها، فلم يكن في وضع يمكنه من أن يتكلم أو أن يكتب بلسان العرب المسلمين، ولكنه كان يذمّ الأتراك ويمتدح العرب.

ولم يكتف نجيب عازوري سعيه لاضفاء طابع علماني على الفكرة العربية الاستقلالية. فقد ورد في بيان "اللجنة الوطنية العربية" احتواء كتابه أن "تركية على عتبة عهد جديد يتميّز بالتغيير الجذري السلمي. فإن العرب الذين استنطاع الأتراك أن يخضعوهم لحكمهم الجائر بواسطة تفرّقهم الى شيع تتناحر وتتناذب على أمور دينية ليست بذات أهمية، والذين أصبحوا الآن يعرفون أنهم أمّة واحدة يوحد بينها التاريخ والشعور الوطني ووحدة العرق، يرغبون في الانفصال عن الأتراك الذين أخذ السوس ينخر في دولتهم وتأسيس دولة عربية مستقلة"⁶³. ويعتقد البيان بأن هذا الأمر يؤدي الى تحقيق الغاية الأساسية، فيضيف: "وبهذا التدبير تكون قد حلت المعضلة الكبرى، أعني فصل الدين الاسلامي عن الدولة المدنية ويكون في هذا الحل خير لجميع الفرقاء"⁶⁴.

في هذا الوقت بالذات كان زعماء المسلمين وقادتهم الفكريون متمسكين بالولاء للدولة العثمانية، ومنادين، بنوع خاص، بضرورة تطبيق الشريعة الاسلامية. يقول زين: "وبينما كان النصارى في لبنان يطالبون بالاصلاح السياسي وبالاستقلال السياسي، كان مفكرو المسلمين في سائر أنحاء الامبراطورية العثمانية يطالبون بتطهير الامبراطورية من الأدران التي لحقت بها، وبتقويتها عن طريق إصلاح الإدارة فيها، وبالرجوع الى الاسلام الصحيح والمؤسسات الاسلامية الصحيحة. ولذلك كان هؤلاء الزعماء المسلمون من رواد الحركة التي كانت تهدف الى قيام "الوحدة الاسلامية". وكان من أشهرهم الشيخ محمد عبده (1849 - 1905) وعبد الرحمن الكواكبي (1849 - 1902) ومحمد رشيد رضا (1865 - 1935) مؤسس مجلة المنار"⁶⁵.

القومية العربية الاسلامية

لم يأل المسيحيون جهدا في سبيل قومية عربية تسليخ المسلم عن الدولة العثمانية المعبّرة آنذاك عن نواة الوحدة الاسلامية، وتقييم المساواة بين المسلم وغير المسلم، عندما انفجرت الحرب العالمية الأولى، وانهارت الامبراطورية العثمانية الاسلامية وتفككت أوصالها.

في أجواء الحرب شعر المسلمون بقيمة الدعوة القومية العربية. وكانت بذور ذلك الشعور قد بدأت قبلا ضعيفة خجولة بسبب تصرفات جمعية الاتحاد والترقي.

⁶³ المصدر السابق، ص 74 - 75

⁶⁴ المصدر السابق

⁶⁵ المصدر السابق

وقد عرفت بريطانيا كيف تستثمر هذا الشعور وتجعل المسلمين العرب يحاربون الأتراك. وفي هذا الموضوع، وعن المسؤولين الأتراك، يقول شكيب أرسلان عام 1973: "ولقد كان العرب والترك أمة واحدة تقريبا قبل أن تتوجد هذه الفئة الضالة"⁶⁶. وفي ضوء هذا الواقع نفهم عنف البيان الذي أصدره في العراق طالب بك النقيب عام 1912. يقول بيان النقيب: "... إن أعضاء هذه الجمعية (جمعية الاتحاد والترقي) ليسوا بمسلمين وحاشا أن يكونوا، بل إنهم كفار خدعوا الإسلام وحاولوا تمزيقه وتقويضه من أساساته... وهم الذين حاولوا تتركنا والقضاء على لغتنا العربية"⁶⁷.

وقويت الدعوة القومية العربية في نفوس المسلمين.
ونكاد نقول إن القومية العربية فرضت نفسها على المسلمين كمخرج وحيد، لا حيلة لهم بسواه، يعبر عن توقعهم الإسلامي الوحدوي.
يقول "تاريخ البشرية" الذي أصدرته الأونسكو: "إن شعورا إسلاميا نشيطا كان يحرك العروبة"⁶⁸.

ويقول الدكتور زين: "إن السبب الأساسي في خلق الأمة العربية والشعور بالوحدة القومية بين المسلمين العرب يعود إلى الإسلام. وستظل هذه القومية المقترنة والممتزجة بالإسلام منذ تبلورها جزءا لا يتجزأ من نفوس العرب المسلمين ومن عقولهم"⁶⁹.

ويقول فلوري ومنتان: "فالعروبة للمسلم هي، إذا، بمثابة لقب شرف. وهذا ما يفسر إرادة كل مسلم في أن يعلن نفسه عربيا، وإن لم يمض عليه زمان في استعراجه. وكذلك سعى الكثيرون لأن يكتشفوا لانفسهم أجدادا عربا ولأن يرجعوا إلى أصل عربي، وإلى ربط هذا الأصل بقدر الامكان بالنبي محمد أو، على الأقل، بقبيلة قريش"⁷⁰.

وفي الواقع فإن في الاحاديث النبوية التالية ما يضع العرب والانتماء العربي في موقع عال جدا من الفخر والعظمة: "أحبوا العرب لثلاث: لأنني عربي، ولأن القرآن عربي، ولأن لغة أهل الجنة عربية". و"من أحب العرب فقد أحبني". إذا ذلّ العرب ذلّ الإسلام".

ويقول أحمد الشرباصي عن الأمير شكيب أرسلان: "ويستقرّ (بعد الحرب العالمية الأولى) في بلدة "مرسين" التركية على مقربة من الحدود السورية، واستمر شكيب حينما في "مرسين"، ولكنه رأى الأتراك يديرون ظهورهم للعرب، ويتنكر حكاهم للخلافة الإسلامية فيلغونها، ويتوجهون اتجاهها "علمانيا" قطعوا الروابط بينه وبين الإسلام والعروبة، فأخذ شكيب يحدد موقفه ويرسم خطته، فإذا هو ينفذ يده من تركية وحكامها"⁷¹.

⁶⁶ أحمد الشرباصي: شكيب أرسلان، سلسلة أعلام العرب، رقم 21، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، ص 85

⁶⁷ زين زين، ص 214

⁶⁸ Histoire de l'Humanité, T6, 2ème partie, Laffont, P 1000

⁶⁹ زين زين، ص 136 - 137

⁷⁰ Flory et Mantran: Les régimes politiques des pays arabes. Coll. Thémis, P.U.F. Paris 1968, P3.

⁷¹ الشرباصي، ص 41

وساطع الحصري، طليعة المنادين بقومية عربية علمانية والمتهم باهمال دور الدين الإسلامي في حركة القومية العربية، اضطر الى الاعتراف بأن "الديانة الإسلامية لعبت دورا هاما في تقدم القومية العربية وتوسعها، لأنها: "اولا: كانت القوة الدافعة للفتوحات العربية التي نشرت اللغة العربية ووسّعت نطاق القومية العربية.

"ثانيا: صارت القوة الواقية التي أكسبت اللغة المذكورة نوعا من المناعة ضد عوامل التفتت والتفرّع... وصانت بذلك القومية العربية من الاضمحلال في عهد انحطاطها الطويل"⁷².

ولم يبتعد الدكتور إدمون رباط عن هذه القناعة أيضا. فهو يقول: "إن التضامن الديني هو مقدمة للتضامن القومي الذي يمهد السبيل للترابط السياسي ويوحّد الصفوف ضد المعتدين الأجانب. ومما لا شك فيه أن الدين الذي لعب هذا الدور في تاريخ العرب هو الإسلام الذي هو "دين ذو روح قومية"⁷³ ويلتقي الدافع الى نشوء القومية العربية في فترة الحرب العالمية الاولى مع أهداف بريطانية. فعندما كان اللورد كيتشنر، وزير الدولة البريطاني، يذكر "الأمة العربية" في برقيته الى الشريف عبدالله بين الشريف حسين، كان مواطنه وزميله، السر ادوارد غراي، وزير الخارجية، يقول: "لقد فكرنا أنه عندما يزول الحكم التركي عن استانبول والمضائق فإنه ينبغي قيام وحدة إسلامية سياسية ومستقلة في بقعة ما، وذلك لصالح الإسلام ولخيرها"⁷⁴.

وكل منتبّع لحركة القومية العربية لا بدّ له من أن يؤكد:

"أنه عندما أمسك المثقفون المسلمون بتيار الحركة القومية العربية، تراجعوا بوضوح عن مضمونها العلماني والديموقراطي. وتجلّى هذا بشكل واضح، وبشكل واضح جدا، بعد الحرب العالمية الثانية حيث غلبت في الحركة القومية العربية نزعة يمكن أن نسمّيها نزعة ماضوية..."⁷⁵.

القومية العربية اسلام العصر الحديث

يعترف قادة القومية العربية، اليوم، بأن الاسلام جوهرها وركنها الأساسي. يقول المسيحي السوري ميشيل علق، مؤسس حزب البعث العربي، (الاشتراكي، فيما بعد):

إن حركة الاسلام المتمثلة في حياة الرسول الكريم ليست بالنسبة الى العرب حادثا تاريخيا فحسب، تفسّر بالزمان والمكان وبالأسباب والنتائج، بل إنها لعمقها ووعفها واتساعها، ترتبط ارتباطا مباشرا بحياة العرب المطلقة، أي انها صورة

⁷² محمد عبد الرحمن برج: ساطع الحصري، دار الكاتب العربي، ايلول 1969، سلسلة أعلام العرب، رقم 86، ص 170

⁷³ لبنان الآخر، مؤتمر حول العلمنة والهوية العربية، مؤسسة الدراسات والبحوث اللبنانية، الطبعة الاولى، بيروت 1976، ص 16

⁷⁴ زين زين، ص 114

⁷⁵ لبنان الآخر، ص 154 وهناك أيضا من القوميين العرب الوجوديين من أقرّ بفشل "الرابطة القومية العربية في أن تكون رابطة قومية صرفة، تجمع كل أبناء الأمة جمعا نزيها ناصعا لا يشوبه نقص ما، ويتسم بالمساواة الفعلية لا الشكلية"، وبأن الفكرة القومية العربية تحوّلت "من فكرة معادلة للعلمانية والديموقراطية الى فكرة مرادفة للعصبية الدينية وغير منفصلة عنها..." (جهاد فاضل، مجلة "الحوادث"، 1979/9/21، ص 64).

صادقة ورمز كامل خالد لطبيعة النفس العربية وممكاتها الغنية واتجاهها
الأصيل...⁷⁶

ويقول أيضا: "إن العرب ينفردون دون سائر الأمم بهذه الخاصة: إن يقظتهم
القومية اقترنت برسالة دينية، أو بالأحرى كانت هذه الرسالة مفصحة عن تلك اليقظة
القومية. وما دام الارتباط وثيقا بين العروبة والاسلام، وما دمنا نرى في العروبة
جسما روحه الاسلام فلا مجال إذن للخوف من أن يشتط العرب في قوميتهم"⁷⁷.
ويقول أيضا: "إن أوروبا اليوم، كما كانت في الماضي تخاف على نفسها من
الاسلام. لكنها تعلم الآن أن قوة الاسلام قد بعثت وظهرت بمظهر جديد هو القومية
العربية"⁷⁸.

ويقول أيضا: "من هذه المفاهيم الأوروبية التي غزت العقل العربي الحديث
فكرتان عن القومية والإنسانية فيهما خطأ وخطر. فالفكرة القومية المجردة في الغرب
منطقية إذ تقرّر انفصال القومية عن الدين، لأن الدين دخل على أوروبا من الخارج
فهو أجنبي عن طبيعتها وتاريخها، وهو خلاصة من العقيدة الأخروية والأخلاق، لم
ينزل بلغاتهم القومية، ولا أفصح عن حاجات بيئتهم، ولا امتزج بتاريخهم، في حين
أن الاسلام بالنسبة الى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب ولا هو اخلاق مجردة، بل
هو أجلي مفصح عن شعورهم الكوني ونظرتهم الى الحياة، وأقوى تعبير عن وحدة
شخصيتهم التي يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر، والتأمل بالعمل، والنفس بالقدر.
وهو فوق ذلك كله أروع صورة للغتهم وآدابهم وأضحك قطعة من تاريخهم القومي،
فلا نستطيع أن نتغنى ببطل من أبطالنا الخالدين بصفته عربيا ونهمله أو نفر منه
بصفته مسلما. قوميتنا كائن حيّ متشابك الأعضاء وكل تشريح بجسمها وفصل بين
أعضائها يهدد بالقتل. فعلاقة الاسلام بالعروبة ليست إذا كعلاقة أي دين بأية قومية.
وسوف يعرف المسيحيون العرب، عندما تستيقظ فيهم قوميتهم يقظتها التامة
ويسترجعون طبعهم الأصيل، أن الاسلام لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها حتى
يفهموها فيحرصوا على الاسلام حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم"⁷⁹.

أما منيف الرزاز، الذي تولى فترة من الزمن أمانة البعث العربي الاشتراكي
بدلا من ميشال عفلق، فيقول: "أما القول بأن اللغة والدين والتاريخ والتراث هي
"أسس بائدة"، كما يقول البعض، فلست أدري كيف يمكن أن تبادر هذه الأسس ويبقى
ثمة حضارة أو يبقى ثمة عرب"⁸⁰.

والمعروف أن حزب البعث العربي الاشتراكي استلم الحكم في سوريا
والعراق. وفي عهده صدرت دساتير تنصّ في بنودها الاولى على أن الاسلام دين
الدولة، أو أن الفقه الاسلامي مصدر رئيسي في التشريع. وهو الحزب الذي ألغى
قانون مساواة المرأة بالرجل، في العراق، الذي صدر في عهد عبد الكريم قاسم. وهو
الذي وقّع على بيان الوحدة الثلاثية (بين سوريا والعراق ومصر) عام 1963 وفيه
أن الاسلام هو دين الدولة.

⁷⁶ ميشال عفلق: في سبيل البعث، دار الطليعة، بيروت 1963، الطبعة الثانية، ص 55

⁷⁷ المصدر السابق، ص 55

⁷⁸ المصدر السابق، ص 57

⁷⁹ المصدر السابق، ص 58

⁸⁰ مجموعة مفكرين: دراسات في القومية، دار الطليعة، بيروت 1960، ص 59

ورئيس الدولة السورية حافظ الأسد نفسه طلب الى مجلس الشعب السوري في شباط 1973 تضمين الدستور الجديد نصا صريحا يعلن الاسلام ديننا لرئيس الدولة، بالاضافة الى أن مشروع الدستور كان ينصّ على أن الفقه الاسلامي مصدر رئيسي للتشريع.

وبذلك، يؤكد حزب البعث العربي الاشتراكي على تفكيره المنطقي في نظريته الى الارتباط الوثيق بين العروبة والاسلام.

ويقول كمال جنبلاط: "... وكم من الشعوب - وخاصة في بلدان المغرب العربي وليبيا والجزيرة العربية وسواها من الاقطار - قد ركزت صراعاها التحرري على مرتكز الدين والتراث الاسلامي، وهذا اللون من العصبية غير المتعصبة التي تتجلى بمفهوم دار السلام.

"ويجب ألا ننسى في أي حال أن نبي الاسلام محمد، كان، في أن واحد، باعث العروبة ورائدها الاول ونييها. وقد تلاحمت الصفتان والرسالتان فيه بحيث يصعب فصلهما فصلا كاملا نسبيا كما يتصور البعض"⁸¹.

ويقول أيضا: "ومن تأثير تعاليم المعتقد والتراث الاسلامي أن ما من دولة في العالم العربي استطاعت أن تتجرّد من مفهوم التيقراطية الاسلامية، وأن تعبر بالدولة المستحدثة الى عقلنة ديكرات والعلم الحديث والى علمنة الحكم كما يتوجب أن يكون عليه"⁸².

وفي الملتقى الفكري العربي في الخرطوم الذي نظّمته السودان في آخر العام 1970، والذي ألقى فيه كمال جنبلاط البحث الذي اقتطعنا منه الفقرات اعلاه، شدّد غير خطيب وباحث على وحدة الاسلام والعروبة.

ففي جلسة الافتتاح قال اللواء جعفر محمد نميري، رئيس مجلس قيادة الثورة، رئيس مجلس الوزراء السوداني، بالافتتاح "على منجزات الفكر الانساني، وعلى تجربة الأمة العربية منبع تراثنا الحضاري الروحي، لا فصل بين عروبتة واسلاميته"⁸³.

ثم تبعه منصور خالد، وزير الشباب والرياضة والشؤون الاجتماعية في السودان، فقال: "إن الفكر العربي لمطالب اليوم بدراسة الجذور الفكرية لحركات البعث العربي والاسلامي في الوطن العربي... لقد أفادت تجربة الجزائر، مثلا، في الربط بين فكرة الجهاد والتحرر الوطني، وأفادت - على عمق اتساعها - من فهم الدين كرسالة مقدسة، وأمكن لها بهذا أن توجه العقيدة الدينية بجماهيرها مرتبطة بالايان العنيد بالأرض ولتحرير الأرض كتراث لا هبة. وقد ارتكز كل هذا على أساس من الفكر الاسلامي متين بدأ بالامير عبد القادر وانتقل عبر بن باديس الى جماعة العلماء... ولو لم أخش المغالاة لاعدته الى ابن خلدون... إن تجربة المهديّة في السودان مثل ناصع آخر... فهي قد اتخذت من فكرة الجهاد في الاسلام عقيدة ورسالة وطنية... وبها وباسمها باحساس وطني آخر متوارث - استطاعت أن تصبح هذه

⁸¹ وقائع الملتقى الفكري العربي في الخرطوم، 15 - 23 آذار 1970، نشرت في العدد 100 من مجلة "المعرفة" التي تصدرها وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي في الجمهورية العربية السورية، ص 84

⁸² المصدر السابق، ص 89

⁸³ المصدر السابق، ص 90

الأخرى منفذا لتفسير التاريخ العربي على المستوى الشمولي في فكر الجهاد والتحرير الوطني"⁸⁴.

أما بابر كرار، وهو سوداني أيضاً، فقد أكد في دراسته وفي غير مكان منها أن "الاسلام هو المدخل لبناء الأمة العربية، وهو الأساس العقائدي الحضاري للأمة العربية. وهذا الواقع الحضاري هو الذي حفظ للأمة العربية خصائصها عبر الاعتداءات المتلاحقة عليها في عصور التخلف والجمود والتجزئة"⁸⁵.

وينظر الدكتور محمد مجذوب، فإن المغرب جزء من الوطن العربي لأن "أهله عرب لغة وتاريخاً وديناً وحضارة"⁸⁶. ولقد طبع الإسلام العالم العربي إلى درجة أن الدكتور مجذوب يقول أيضاً: "إن الأغلبية الساحقة في الوطن العربي تدين بالاسلام. وإذا كانت هناك أقلية من المسيحيين فإننا نعتبرها مسلمة فكراً وتاريخاً وحضارة"⁸⁷.

وعندما نشر الدستور المصري سنة 1965 نصت المادة الثالثة منه على أن "الاسلام دين الدولة". وقد تبرر هذا النص وقتئذ بأن "مصر لا تستطيع أن تفعل ما فعلته تركيا الفتاة، فتقدم على اعلان "علمانية الدولة"⁸⁸ وتتهم الشريعة الاسلامية بأنها "شريعة عتيقة". لماذا؟ لأن مصر، أولاً، دولة عربية. ولأن الدين الاسلامي فيها متمكن من قلوب المصريين، متغلغل في أعماقهم. ولأن مصر تقوم في نشر حضارتها على ركن ركين من الدين الاسلامي"⁸⁹.

ويقول الدكتور محمد محمد حسين: "الاسلام... حقيقة كبرى من حقائق العروبة، وعنصر أصيل من مقومات مجتمعتها وآدابها... نزل كتابه بلغتها وحُفظ تراثه كله فيها... ثم إن الاسلام من ناحية أخرى هو الذي وحد العرب ورفع ذكرهم ودفعهم الى طريق المجد وحمل لغتهم الى الآفاق... "وهو الذي جمع الناطقين بها على قيمه ومثله في أخوة زالت معها فوارق الجنس واللون.

"فالاسلام هو الذي حدّد الشخصية العربية على مرّ العصور وربط آخرها بأولها لغة وحضارة وخلُقًا. وليس للعروبة تاريخ يعتز به العرب ويجتمعون حوله قبل الاسلام.

"نعم، الاسلام حقيقة كبرى من حقائق العروبة وعنصر أصيل من مقوماتها"⁹⁰.

وكتب الدكتور إسماعيل مظهر: "فإذا قال أحدنا بالجامعة الاسلامية فإنما يعني جامعة عربية روحها الاسلام، وإذا قال أحدنا بالجامعة العربية، فإنما يعني جامعة إسلامية روحها العروبة. وكل قول ينادي هذا القول خطأ. وكل نزعة تخالف هذه النزعة شعبية خسيصة"⁹¹.

⁸⁴ المصدر السابق، ص 21

⁸⁵ المصدر السابق، ص 64

⁸⁶ مجلة "العلوم"، بيروت، حزيران 1962، ص 24

⁸⁷ المصدر السابق، ص 19

⁸⁸ في الواقع، فإن "علمانية" تركية ليست سوى علمانية قانونية بحتة، لا يعيشها الأتراك ولا يمارسونها على الصعيد الحياتي.

⁸⁹ روح الدستور، ص 71 - 72، دار الجمهورية للطباعة، مجموعة اخترنا لك، رقم 35، الجمهورية العربية المتحدة

⁹⁰ الدكتور محمد محمد حسين: الأدب العربي في ظل القومية العربية، دار الارشاد، بيروت 1969، الطبعة الثانية، ص 12 - 13

⁹¹ مجلة "المقتطف"، نيسان 1945 ورد في "لبنان وطن قومي للنصارى في الشرق الأدنى"، ص 45

وأخيراً، لا آخراً، نرى من المفيد أيضاً الاستشهاد بما قاله أحد المرابين اللبنانيين الدكتور عمر فرّوخ: "الاسلام هو في الواقع ديانة القومية العربية. وأنا شخصياً أؤمن بأن هذين المفهومين، أي الاسلام والقومية العربية، هما واحد. في السياسة يقولون إن الاسلام يمثل شطراً كبيراً في العروبة. وليس هذا سوى تساهل من قبل الساسة. في الواقع، لا فرق بين الاثنين ويجب أن يكون الأمر كذلك"⁹².

إن هذه الأقوال والنصوص تستكمل وضوحها بعد الملاحظتين التاليتين. الأولى، أن مقصودنا ليس النفي بأن "العروبة ليست الاسلام ولا الاسلام هو العروبة"، على حدّ ما جاء في توصيات المؤتمر الاسلامي الذي عقد في 14 تشرين الثاني 1976 في دار الفتوى في بيروت⁹³. إننا نؤيد هذا القول بدون تحفظ ونتبناه: "العروبة ليست الاسلام ولا الاسلام هو العروبة". الاسلام يتخطى أي حاجز قومي أو وطني أو دولي (بالنسبة الى "دولة"). والعروبة تيار قومي سياسي لا يمكن أن "يستوعب" الاسلام (الادنى لا يستوعب الأعلى) ويشمل جميع مسلمي العالم.

إنما الذي نقطع فيه هو أن العروبة إسلامية الطابع والجوهر. وما كان لوجودها ولا استمرارها من مجال لولا نسغها الاسلامي. ويوم لا تبقى العروبة إسلامية الطابع والجوهر، يومذاك تذبل وتموت وتضمحل. من هنا نفهم قول منح الصلح: "ولقد كان من الحقائق المقلوبة في الوطن العربي بل من المآسي أن تظهر العروبة الديثة عروبة الوحدة والدخول في حركة التاريخ، ولو عند قطاع محدود من الناس، بأنها خروج على الاسلام أو رفض له أو تنكر، بينما هي في الحقيقة إعادة بناء الأمة التي أطلقها الاسلام"⁹⁴.

وكذلك فإننا لا نعجب حتى من الدكتور أنور عبد الملك، الماركسي الميول، عندما يقول بمناسبة الأحداث في الشرق الأوسط في أواخر العام 1978 ومطلع العام 1979: "ما يحدث الآن في الشرق الأوسط ويسميه البعض "مدا اسلامياً" هو في الواقع مدّ قومي عربي شرقي من قلب الحضارة الشرقية... "إن الاسلام السياسي" هو، مرة أخرى، الدرع الواقية للإرادة القومية العربية"⁹⁵.

وأكثر من ذلك، فالدين الاسلامي "ذو العلاقة الخاصة والحميمة بالقومية العربية"⁹⁶، كما يقول أيضاً منح الصلح، جعل تأثير العروبة يتخطى "بلاد العربية" ليمتد الى بلاد إسلامية أخرى فيلزمها بـ"الوفاء لفلسطين والبرّ بالأمة العربية وتجنب إثارة المعارك الجانبية معها"⁹⁷. ومثال ذلك موقف الإيرانيين من الشاه محمد رضا بهلوي ومن سياسته. فقد قال الإيرانيون على لسان آية الله روح الله الخميني ما معناه: "إذا كنتم مسلمين فبأي حق تقيمون العلاقات مع إسرائيل وتتشركون معها في التخطيط ضد العرب ضد فلسطين وضد القدس؟ إذا كنتم مسلمين فبأي حق تفتحون

⁹² ورد في أطروحة الدكتور هنف

⁹³ باسم الجسر: ميثاق 1943، دار النهار للنشر، بيروت 1978، ص 438

⁹⁴ منح الصلح: إسلام الحاكم وإسلام الجماهير، "النهار العربي والدولي"، الاثنين 29 كانون الثاني 1979، الصفحة الأخيرة

⁹⁵ أنور عبد الملك: "النهار العربي والدولي"، الاثنين في 15 كانون الثاني 1979، ص 5

⁹⁶ منح الصلح (المرجع رقم 94 اعلاه)

⁹⁷ المصدر السابق

في هذه الظروف معركة مع الخليج ومع العراق أقل ما يقال فيها إنها معركة ضد بلاد إسلامية تخوض حرباً ضد الصهاينة"⁹⁸.

أما الملاحظة الثانية فهي الاقرار بأن بعض الأصوات ارتفعت من أجل العروبة أو قومية عربية علمانية "تفصل" الدين عن الدولة.

فضلاً عن العروبيين المسيحيين الرواد (وأكثرية العروبيين المسيحيين اليوم)، هناك الشيوعيون والماركسيون الممتطون أية ذريعة توصلهم إلى هدفهم. ففي "بلاد العربية" المسلمة، تكون "العروبة" فرسهم المدللة. وفي إيران، يكون "الإسلام الشيعي" جوادهم المفضل. كما أن ردة الفعل العرقية للأغلبية السوداء تشكل "الوسيلة النضالية والتقدمية الفعالة" في أفريقيا، الخ...

وهناك أيضاً أفراد قلائل من المسلمين في لبنان ما انفكوا يؤكدون على عروبة علمانية ثقافية وحضارية. غير أن تقويماً موضوعياً لهم ولأقوالهم يوصلنا إلى نتيجتين.

الأولى، أن لا فعالية ميدانية لرأيهم ولموقفهم (وبرهانه ازدياد قوة العروبة الإسلامية وانحسار التيار العروبي العلماني). والثانية، أن تأكيداتهم على "العروبة العلمانية" هي تأكيدات مجانية، تعبّر عن أمل وتتمن أكثر مما هي مرتكزة على دلائل وبراهين وإثباتات. كما أن بعضهم يتوسلون عبارات فيها كثير من الغموض وعدم الصراحة. لذا لم ينجحوا في خلق قناعة داخلية ووجدانية في نفوس سائر العروبيين.

وليس لهؤلاء الأفراد المسلمين، إجمالاً، مسؤوليات حزبية أو رسمية أو قيادية جماهيرية. وهم، في أكثريتهم الساحقة، متأثرون بالمفاهيم القومية الأوروبية. ويلاحظ عند أغلبهم برودة ولا مبالاة دينية، قناعة وممارسة وسلوكاً حياتياً يومياً، أي نوعاً من التخلي العملي عن إسلامهم.

رثاء العروبة

هكذا يتبين لنا بوضوح "أن المسيحيين أرادوها عروبة علمانية، بينما أخذها المسلمون عروبة إسلامية"⁹⁹. ففشل المسيحيون في إيجاد مجتمع سياسي جديد على أساس المساواة بين المسلم وغير المسلم. وكأنما وديع البستاني يعبر عن تلك المرارة وذلك الفشل اللذين اعتمرا قلوب المسيحيين الذين عملوا للعروبة، بقوله:

هذي جناية عمر
لم أدر كيف جناها
وغنى العروبة دهرأ
وعاش حتى رثاها

⁹⁸ المصدر السابق

⁹⁹ محمد علي مكي: نقاط الارتكاز في تحديد الهوية اللبنانية، مطبوعة على الستاسل، تاريخ 1977/5/5، ص 6، فقرة 11

الفصل السادس

رفضُ العلمانيّة

بعد التأكد من أسلمة القومية العربية، حاول مسيحيون آخرون، وجميعهم من لبنان، الوصول الى الهدف عن طريق آخر. فقد بدا أن فشل العروبة القومية يعود الى أن الانسان المسلم بقي على قناعته الداخلية المتجذرة المؤمنة بوحدة الدين والسياسة على نحو عضوي. لذا ينبغي أن يمر طريق الخلاص عبْرَ نظرة جديدة الى علاقة الزمانيات بالروحانيات، أي مواجهة الموضوع في أساسه ومباشرة، والذهاب اليه رأساً. فبرزت الدعوة الى العلمانية.

ما هي العلمانية

إنها مفهوم يميّز بين الشؤون الدينية والشؤون الزمنية الدنيوية، دون أن يفصل بينهما على نحو تناقضي أو عدائي. إنه يأبى أن يحكم المجتمع السياسي باسم دين أو باسم شريعة دينية أو بالنيابة عن الله. ويرفض، كذلك، أن يكون الانتساب الديني أو المذهبي عامل امتياز لفئة من المواطنين على مواطنين آخرين ومبدأً للامساواة فيما بينهم.

العلمانية محايدة تجاه إيمان المواطنين الديني. لا بل تيسّر لهم الإمكانيات كافة التي تسهّل ممارسة المقتضيات العائدة الى عقائدهم الدينية. العلمانية تنشئ المواطنين على عقيدة المساواة. هذه التنشئة تخلق لدى المواطن قناعة داخلية بأنه مساو لمواطنه، بصرف النظر عن أي فارق ديني أو مذهبي، ثم تجعله يمارس هذه القناعة في الواقع. لذلك فإن العلمانية في "النصوص القانونية" فقط، وعلى الطريقة التركية، ليست العلمانية الصحيحة. ولا بدّ هنا من الإشارة الى أن العلمانية لم يكن لها عند نشوئها هذا المفهوم العصري التقدمي الواضح الذي اشتقرت عليه. فلقد خاضت، في موطنها الأوروبي، صراعاً مريراً ودمويًا، وانطبع في بعض مراحل بلورتها بالطابع الإلحادي المعادين للدين، والمناوئ لرجال الدين والمنكر عليهم حق التدخل في شؤون السياسة.

ولا بدّ كذلك من التأكيد على التناقض الجوهرية بين العلمانية والإلحاد. فالإلحاد دين من نوع خاص. والدولة التي تتبنى "الإلحاد" عقيدة، كالدولة التي تتبنى ديناً معيناً عقيدة رسمية لها. كلتاها تمارسان حتماً اللامساواة والتمييز التسلطي بين المواطنين.

المسلمون والدعوة العلمانية

العلمانية التي عرضها المسيحيون على المجتمع الاسلامي في لبنان وفي المشرق كانت على نوعين:
النوع الاول مائل الى الإلحاد، أو على الأقل، عامل على تشجيع الناس على البرودة الدينية.
والنوع الثاني يمثل المفهوم العصري التقدمي الذي نوّهنا به.

النوع الأول، جاء به ويمثله الحزب السوري القومي الاجتماعي.
كان هذا الحزب أول من أعطى التيار العلماني في المشرق محتوى عمليا
ونضاليا في آن معا.

فمنذ العام 1932، نادى مؤسس الحزب، انطون سعادة، بفصل الدين عن
الدولة وبمنع رجال الدين من التدخل في الأمور السياسية.
ولكن هذا المبدأ الاصلاحى لم يبرز عند الناس وقتئذ بروز مبدأ الوحدة
السورية. فقد التف حول الحزب السوري القومي (الاجتماعى، فيما بعد) رافضون
لإلحاقهم بدولة لبنان الكبير، وناقمون على الانتداب (باسم الوطنية أو باسم رفع
الهيمنة المسيحية الغربية) وعاملون على وضع حد نهائي للصراع الطائفي. وتمكن
سعادة من جمع مسلمين كثيرين الى جانب مسيحيين كثيرين في حزب واحد.
لكن المسلمين الذين انخرطوا في هذا الحزب أخذوا، بعد سنوات، يتركونه
بالتواتر نفسها التي كانت الحركات العروبية الصريحة تنمو وتنتشر. غير أن
الانفصاض من حول سعادة قوي عندما أخذ المسلمون يعون أكثر فأكثر المركز
الأساسي الذي تحتله العلمانية في عقيدة الحزب.

شعر سعادة بخطورة الوضع. ولكي يحول دون ابتعاد المسلمين عن حزبه،
وليؤكد على "الوحدة الروحية" العميقة الرابطة بين السوريين، فقد استنبط نظرية
تفيد أن "جميع السوريين ينتمون الى دين واحد هو الإسلام. فما "المحمدية" وما
"المسيحية" الا فرعان له، أو "رسالتاه"¹⁰⁰ على حد قول سعادة. واستند في موقفه
الى روح الدين الاسلامي الذي يعتبر ذاته تصحيحا "للانحراف" الذي دخل على
اليهودية والمسيحية، وتتمّة نهائية "الدين الله الحقيقي". كما يستند سعادة مباشرة الى
ما يوحيه الظاهر لعدد من الآيات القرآنية. منها: "ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا
ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين" (آل عمران 67). "قل أمانا بالله وما
أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي
موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون" (آل
عمران 84). "وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم (اجتباكم): اختاركم للدفاع عن
دينه) وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّكم المسلمين من
قبل... (الحاج 78).

لكن المسلمين لم تعجبهم نظرة سعادة الى "المحمدية"، لفظا ومحتوى، كما لم
يعجبهم وضعه لها على قدم المساواة من حيث الجوهر مع المسيحية.
لذلك، نرى أن الأكثرية الساحقة التي بقيت في صفوف الحزب السوري
القومي الاجتماعي تنتمي، سوسيولوجيا، الى المذاهب المسيحية. أما المسلمون،
سوسيولوجيا، فأقلية فيه، وقد تخلوا عمليا عن إيمانهم الديني الاسلامي.
أما النوع الثاني للعلمانية فيمثله – ولكن ليس حصرا – حزب الكتائب
اللبنانية.

قالت الكتائب اللبنانية في بيانها الأول إن من أهدافها "أن نستبدل المثل
الطائفية بالمثل القومي، وأن نؤلف في قالب الدولة العصري بين كافة القوى المعنوية

¹⁰⁰ انطون سعادة، الاسلام في رسالتيه المسيحية والمحمدية، ط 3، بيروت 1958

التي لدى مختلف العائلات الروحية في هذا البلد"¹⁰¹. ولم تملّ بيانات رئيس الكتائب من الترداد من أن "لبنان الذي نؤمن به ونريده هو لبنان العلمانية المؤمنة لا الطائفية الملحدة"¹⁰². وقالت الكتائب في "فلسفة العقيدة الكتائبية"¹⁰³: "إن عقيدتنا ترفض أن يكون لبنانية الدولة الحقوقية دين معين أو أن يكون أحد الأديان مصدرا للتشريع والحكم.

"كذلك فإن عقيدتنا تعتبر أن التمييز ما بين حقل السلطات الزمنية وحقل السلطات الروحية تمييز ضروري لكي تضمن كل من هذه المؤسسات لنفسها كيانها واستقلالها ولكي تتمكن كل منها من أن تقوم بمهامها دون أن تتعدى الواحدة منها صلاحيات الأخرى. والتمييز هذا لا يعني أن للسلطات الزمنية حقا في أن تتجاهل السلطات الروحية أو أن تفرض على موظفي الدولة مذهباً معيناً في الحياة أو أن تعتبر السلطات الزمنية أن لا حدود لسلطتها ولا قيود.

"تريد عقيدتنا أن يكون جميع المواطنين متساوين أمام القانون دون تمييز في الأصل أو العرق أو الدين. وتصرّ عقيدتنا على أن يحترم القانون جميع المعتقدات، وتطالب عقيدتنا بوجود اعتماد الكفاءة مقياساً للتوظيف ولإدارة دفة البلاد.

"فالعلمانية في مفهومنا ليست، إذا، فلسفة تنادي بالاحاد أو بنظرة مادية الى الحياة. وليست دعوة الى التراخي الديني. كما انها ليست لامبالاة بتبديدها السلطات الزمنية تجاه السلطات الروحية وتجاه مستلزمات المواطنين الايمانية. علمانيتنا هي أن الدولة اللبنانية – أي هذه الشخصية المعنوية الحقوقية لمجتمعنا – تحترم حرية الضمير عند المواطنين كافة. لا بل تقدم لهم كل الامكانيات اللازمة ليتمتعوا بهذه الحرية. إنها تفرض الاعتراف بتكامل وظيفتي الهيئات الزمنية والهيئات الروحية".

ولكن حزب الكتائب فشل أيضاً في سعيه لتشجيع المسلمين على اعتناق الدعوة العلمانية. وأسباب الفشل ثلاثة. الأول، أن الكتائب لم تأخذ بعين الاعتبار حقيقة الدين الاسلامي لجهة الارتباط العضوي فيه بين الأمور الدينية والأمور الدنيوية. والثاني، أنه غاب عن عقائديها حقيقة ما يسمّى بـ"الطائفية" في لبنان. والثالث، لأنها جسّدت – دون التفرد، طبعاً – الفكرة القومية اللبنانية؛ وموقف المسلمين من القومية اللبنانية معروف.

ورغم الفشل المتواصل، فلا تزال الدعوة العلمانية تتصاعد من غير أفق وحركة وناد، ولا يزال المسلمون مصرّين على رفضهم لها بقوة وعنف، معتبرينها حرباً ضروساً على الإسلام وعلى المسلمين. وفي ذلك، يقول الرئيس السوري حافظ الأسد في خطابه الشهير في العشرين من تموز من العام 1976: "المسلمون في لبنان هم الذين لا يريدون العلمنة وليس العكس، لأن الأمر يتعلق بجوهر الإسلام"¹⁰⁴.

¹⁰¹ جميل جبر، الحركة الكتائبية، ص 18

¹⁰² جريدة "العمل"، 15 آب 1964

¹⁰³ أمين ناجي، فلسفة العقيدة الكتائبية، منشورات الكتائب اللبنانية، عام 1966، ص 71-72

¹⁰⁴ جريدة "النهار" البيروتية، 21 تموز 1976

العلمانية تتنافى والإسلام

إن موقف المسلمين من العلمانية ينسجم الانسجام كله مع مقتضيات الحقيقة الإسلامية. "إن الدين الإسلامي دين متكامل في تنظيمه. وذلك لأننا نؤكد بأنه في عقيدته وفي عباداته وفي تشريعاته الدنيوية المتعلقة بالبيع والقصاص والحدود والأخلاق يهدف إلى بناء الشخصية الإسلامية القوية لدى الفرد ومن ثم لدى الجماعة"¹⁰⁵. "والسياسة ظاهرة من ظواهر الدين التي لا تنفصل عنه في صورة من الصور ولا ظرف من الظروف"¹⁰⁶.

والمستشرقون الموضوعيون يقرّون بذلك. يقول لوي غاردييه: "إن الإسلام دين، وإنه أيضا في تعاليمه الأساسية جماعة تحدد باسم الدين لكل عضو فيها ولجميع أعضائها على السواء شروط الحياة وقواعدها: فالحياة العائلية، والاجتماعية والسياسية والدينية المحضة، والمصلحة العاجلة في هذه الحياة الدنيا، والنعيم المقيم لكل مؤمن بالحياة الآخرة، كل ذلك مرسوم في وحدة كلية كبرى يهيمن عليها الإسلام وينفخ فيها من روحه"¹⁰⁷.

"هذا هو الإسلام. والمسلمون لم يأتوا لهذا الدين من بيت أبيهم ليغيروا فيه أو يبدّلوا منه، وإنما، هم يعتقدون بأنه أنزل على نبيهم هكذا دينا ودولة، للفرد وللجمعة، فهذه سنة الله "ولن تجد لسنة الله تبديلا"¹⁰⁸.

لذلك يؤكد المفتي الشيخ حسن خالد في مناسبات عديدة رفضه لنظام العلمانية لأنه "يهدف إلى إخراج المسلمين من دينهم"¹⁰⁹. ويقول المفتي أيضا: "رفضنا العلمنة رفضا جازما لتعارضها مع مفاهيمنا الدينية ومصالحنا اللبنانية والوطنية ككل"¹¹⁰. ويقول أيضا: "العلمنة تتنافى مع الإسلام ولذلك فنحن نرفضها بشدة"¹¹¹. ويقول أيضا: "نحن المسلمين في عقيدتنا نحارب العلمانية كما نحارب الداعين لها إلى أي جهة انتموا"¹¹².

وقد أسهب "مجلس العلماء في لبنان" في شرح أهداف العلمانية في بلاد المسلمين وفي لبنان، وحدّد ذلك على نحو واضح جدا في بيان نشر في الخامس والعشرين من شهر شباط 1976.

يقول البيان:¹¹³

"... خامسا: أهداف العلمانية في بلاد المسلمين.

"إن السياسيين المعادين للإسلام، اقتداء منهم بالمستشرقين، يعمدون، بمناسبة وبدون مناسبة إلى الإشادة بأي بلد إسلامي يطبق مبادئ العلمانية ومثالهم في ذلك الدولة التركية الإسلامية.

¹⁰⁵ الشيخ حسن خالد، المسلمون في لبنان والحرب الأهلية، دار الكندي، الطبعة الأولى، عام 1978، 334

¹⁰⁶ المصدر السابق، ص 335

¹⁰⁷ صبحي الصالح، النظم الإسلامية، نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، عام 1968، ص 56 - 57

¹⁰⁸ حسين القوتلي، جريدة "السفير" البيروتية، 1975/8/15

¹⁰⁹ الشيخ حسن خالد، المسلمون في لبنان والحرب الأهلية، ص 396

¹¹⁰ المصدر السابق، ص 301

¹¹¹ المصدر السابق، ص 395

¹¹² المصدر السابق، ص 414

¹¹³ جريدة "الأنوار" البيروتية، 25 شباط 1976

"ولا بدّ لنا هنا من تنبيه المسلمين الى حقائق هذا الموضوع وخلفياته:
"إن دول الحلفاء أثناء تسوية الصلح مع تركيا في نهاية الحرب العالمية الأولى أجبروا تركيا على قبول العلمانية واعتمادها ليتحقق لهم ما يلي:
أ- إلغاء الخلافة الإسلامية التي كانت أداة تجميع للمسلمين أيا كانت قوميتهم.
وبالتالي تشجيع دعاة القومية ابتداءً بالقومية العربية وانتهاءً بالقومية الاسرائيلية ومرورا بالقومية التركية.

"ب- عزل الدولة الإسلامية، المثال الاكبر في ذلك الحين، عن التراث الإسلامي، وتقريب شعبها المسلم من الغرب في ثقافته ومفاهيمه وطريقة عيشه، ليشكل هذا الشعب الميكروب الناقل للداء في جسم الأمة الإسلامية.
"ج- مساعدة الاتحاد السوفياتي في إخضاع الشعوب الإسلامية الواقعة تحت سلطته، والمتمردة على الايديولوجية الماركسية العلمانية باعتبار أن تلك الشعوب ذات أصل تركي. وعلمنة تركيا تشكل تسهلا مهما لاخضاع تلك الشعوب.
"- سادسا أهداف العلمانية في لبنان.

"إن المسلمين، وجميع المواطنين، يعلمون الحقائق التالية:
"1- إن الإسلام، كدين ينظم الحياة، ليس له سلطة في لبنان. وهو لجهة ممارسة العبادات موجود مظهريا بنسبة أقل من وجود سواه. أما لجهة رجاله، فليس في الإسلام رهبانية ولا اكليروس.

"2- إن سياسة الحكم في لبنان لا تتأثر بالإسلام في أي مظهر من مظاهرها. فالتوجيه والتعليم لا يتعرفان على الإسلام في المراحل الابتدائية والمتوسطة، لولا بعض المدارس الخاصة. أما في مراحل التعليم العالي والجامعي فلا وجود للإسلام البتة الا في فرع الاختصاص الجديد الذي افتتح مؤخرا في جامعة بيروت العربية.
"- وفي التشريع والقضاء، أدخل الإسلام في خزانة الماضي.

"- وفي المال والاقتصاد، يقع الإسلام في وادٍ والنظم المالية والاقتصادية في وادٍ آخر.

"ولم يبق إذن من مظاهر الإسلام في هذا البلد إلا بعض أحكام الأحوال الشخصية المتعلقة بالزواج والطلاق والارث والنفقة والحضانة والعدة.
"ولم يبقَ في الأحوال الشخصية كفاصل بين المسلمين وغيرهم، الا أن المرأة المسلمة لا تتزوج بغير المسلم. وهنا بيت القصيد.

"... إن زعماء الدعوة الى العلمانية يقصدون بالتحديد:

"1- تزويد الشخصية الإسلامية في لبنان عن طريق تزويد المسلمة من غير المسلم بعد أن احتضنوها في مدارس التبشير، وعزلوها عن التحصين الفكري الإسلامي، وبعد أن أباحوا - قانونيا - تسجيل عقد زواجها من غير المسلم فيما إذا أُجري في بلاد تخضع للنظام العلماني، وبعد أن ضمنوا لها الميراث من عصبيتها وذوي أرحامها من المسلمين وبواسطة الأحكام الشرعية الإسلامية.

"2- تشجيع نشوء أجيال من آباء مسيحيين وأمهات مسلمات لإدخال الخلل في الروابط العائلية الإسلامية بين ذوي الأرحام، تمهيدا لإفساد الأصالة في الأجيال الإسلامية في العالم العربي المجاور لا في لبنان فحسب.

"3- هدم الحاجز الوحيد والأخير الذي يردّ عن المسلمين في لبنان أخطار الإذابة والتفتيت والتضليل التي يتعرضون لها بقسوة وإحاح من علمانية الغربيين وعلمانية الماركسيين على حدّ سواء.

"4- إيصال المجتمع الإسلامي في لبنان الى النتيجة الطبيعية التي وصل اليها شعب بلاد إسكندينايا بفضل تطبيق العلمنة فيه، إبتداء من التحرر من القيود في العلاقات الجنسية ومرورا "بزواج المجموعة" وإقامة معارض الجنس وأفلام "الحب المكشوف" و"زواج التجربة"، آخر المظاهر الحيوانية هناك.
"سابعا – موقفنا ومطالبنا

"إن مجلس العلماء في لبنان، المتيقظ لما يحاك من مؤامرات ضد الكيان الإسلامي والشخصية الإسلامية والقيم الإسلامية والمتألم لسقوط بعض المثقفين المسلمين في فخ العلمانية ومناداتهم بها، ولوقوع فريق آخر منهم في سجن التبعية الإلتزامية لبعض الأحزاب التي تنادي بها أيضا.
"إن المجلس يعلن استنفاره لكامل أعضائه من أجل مواجهة هذا الخطر المستفحل بكل الوسائل ويقرر ما يلي:

"أولا – العلمانية ليس لها مكان في وجود الانسان المسلم. فإما أن يوجد الإسلام ولا علمانية، وإما أن توجد العلمانية ولا إسلام.
"ثانيا – تحذير المرشحين لرئاسة الجمهورية من توقيع أي تعهد بتطبيق العلمانية فيما يتجاوز حدود طائفتهم. وإبلاغهم أن المسلمين المنتمين الى حزب الله فقط والملتزمين بالإسلام مبدأ وسلوكا ونظام حياة سيحافظون على أحكام دينهم بكافة الوسائل.

"ثالثا – الإعلان للجميع أن المسلمين راضون تماما عن تطبيق الأحكام الإسلامية في الأحوال الشخصية، ولن يبدلوا شريعة الله بأية شريعة.
"رابعا – تسجيل التقدير للموقف الإسلامي الحازم الذي وقفه الرئيس صائب سلام والرئيس رشيد كرامي من مسألة العلمانية في لجنة الحوار.
"خامسا – إن توهم بعض المثقفين، أنه يمكن التوفيق بين الإسلام في المجتمع الإسلامي والعلمانية، عائد الى قصور هؤلاء المثقفين في تصور الإسلام والى الخلل الواقع في منطلقاتهم الفكرية.

"سادسا – تسجيل عدم معارضة زعماء المواردية ومن يوافق معهم من زعماء الدروز في مطالبتهم بتطبيق العلمانية فيما يختص أحوال طائفتهم الشخصية فحسب، إذا كانوا يرون فيها الحل المناسب لما قد يشكون منه".

ثم يطالب البيان بـ"إضافة نصّ في مرسوم تنظيم القضاء الشرعي يقضي بتطبيق "أحكام المرتد" (المرتد هو الذي يترك الدين الإسلامي ويعتق دينا آخر، وعقابه الموت) على المسلمة المتزوجة من غير المسلم في قضايا الإرث الوصية والأحوال الشخصية الأخرى".

وتعليقا على بعض ما جاء في هذا البيان، وايضا للحقيقة، نعتبر أن تطبيق العلمانية في لبنان يفترض الإجراءات التالية:

- 1- إلغاء الطائفية السياسية والإدارية إلغاء تاماً.
- 2- إلغاء مركز الإفتاء والمجلس الشيعي الأعلى ومشيخة العقل كمؤسسات رسمية مع كل ما يتبعها ويلحق بها من دوائر ومكاتب...
- 3- إلغاء الإعفاءات الضريبية والجمركية التي تتمتع بها المؤسسات الدينية.
- 4- إعادة النظر، جذرياً، في موضوع الأوقاف.
- 5- جعل شؤون الأحوال الشخصية كافة خاضعة لإلزاماً لقانون مدني. (ويمكن، في مرحلة أولى، وضع قانون مدني اختياري للأحوال الشخصية).
- 6- اعتبار حق المواطن في تغيير دينه، وفي اعتناق الإلحاد والتبشير له، حق في ذاته لا دخل للدولة فيه الا في حدود الانتظام العام.
- 7- التحرر من أية نظرة استعلائية بسبب الإنتماء الديني أو المذهبي، والنظر الى جميع المواطنين كأشخاص متساوين في القيمة وتجاه القانون.

إن هذه البنود السبعة تندرج كلها تحت شعار حياد الدولة تجاه الأديان والايان الديني للمواطنين وإنتمائهم الطائفي السوسولوجي. كما يهدف الى الإفصاح في المجال للجميع بالتمتع بحرية الضمير في أبعادها كافة.

على هذا، فإن الموقف العدائي في لبنان للعلمانية ليس إسلامياً سنياً فقط. انه موقف إسلامي عام. وبرهانه الأكبر، بالإضافة الى مواقف مسؤولي المجلس الشيعي الأعلى في هذا الصدد¹¹⁴، ردات الفعل الإيجابية العفوية والمدروسة لدى شيعة لبنان¹¹⁵ بالنسبة لإعلان الجمهورية الإسلامية في ايران.

وليس أدلّ على شمولية موقف المسلمين في العالم من العلمانية من مقررات مؤتمر المنظمات الإسلامية الذي عقد في مكة المكرمة من 6 الى 11 نيسان 1974. وقد بحث في جملة ما بحث فيه موضوع العلمانية واتخذ بشأنها المقررات التالية:

لذلك يوصي المؤتمر بما يلي:

- 1- " بما أن الإسلام دين ودولة وعمل وعبادة فإنه يرفض فكرة العلمانية التي تحاول إبعاده عن التأثير في الحياة العامة للأمة الإسلامية.
- 2- "مطالبة الدول الإسلامية باعتبار الشريعة الإسلامية المصدر الوحيد لدساتيرها وقوانينها.
- 3- "إلزام المؤسسات التعليمية العلمانية في العالم الإسلامي بإدخال العقيدة الإسلامية في برامجها"¹¹⁶.

أصوات مخالفة

هناك أصوات لبعض المسلمين في لبنان¹¹⁷ وفي غير لبنان دعت الى العلمانية او الى نوع منها، وهناك محاولات جرت في غير بلد إسلامي من أجل تحقيق العلمانية أو نوع يقترب منها.

¹¹⁴ مجلة "الحوادث"، 23 تموز 1976، ص 20 - 22

¹¹⁵ جعفر شرف الدين، في مجلة "الحوادث"، عدد 11 ايار و18 ايار 1979

¹¹⁶ مجلة "الهلل" عدد خاص، أنقرة، ايار 1974، ص 31

وقد رأى بعض المتفائلين في هذه الدعوات والمحاولات خيط النور الرفيع الذي يؤمل بيوم تشق فيه العلمانية لنفسها طريقاً أوسع وأبعد. غير أن فهما عميقاً لهذه الدعوات والمحاولات يتيح لنا، حتى الآن، المجال لإبراز الملاحظات التالية:

أولاً – في الدعوات الى العلمانية

أ- هناك مواقف صادرة عن جهات خرجت عن إسلامها إما قناعة وإما عملياً وإما الاثنين معاً. من هؤلاء: الماركسيون والرافضون أساساً للدين والفاترون جداً تجاه الإسلام. دعوات هؤلاء الناس ليست هي المطلوبة وليس لها الفاعلية الحقيقية. إن المطلوب هو الدعوة العلمانية الصحيحة الصادرة عن مسلم مؤمن كل الإيمان بدينه، أي القادر على أن يكون مسلماً، بكل ما في الكلمة من أبعاد، وأن يكون علمانياً، بكل ما في الكلمة من أبعاد.

ب- هناك مواقف لبعض المسلمين اللبنانيين تكثفت بالدعوة الى إلغاء الطائفية الإدارية والسياسية. وخير من يلحّص هذه المواقف الدكتور بشير بيلاني في قوله: "إن العلمانية التي يدعو بعض اللبنانيين لاعتمادها تقتصر، كما رأينا، على عدم تمييز الدولة بين المواطنين بسبب انتمائهم الديني أي إلغاء المادة 95 من الدستور والمادة 96 من نظام الموظفين والمادة الثالثة من قانون الانتخاب وإقرار الزواج المدني"¹¹⁸.

ومن المعروف أن المقصود بـ"بعض اللبنانيين" المطالبين بـ"إقرار الزواج المدني" إنما هم مسيحيون في أكثريةهم الساحقة.

ونكرّر هنا، أيضاً، أن المطلوب هو الاقتناع بتحقيق العلمانية في مجتمع إسلامي يريد أن يبقى إسلامياً بحسب مقتضيات الأحكام القرآنية.

ج- إن دعوات بعض المسلمين اللبنانيين الى العلمانية ترتدي، أحياناً، طابع السعي للتخلص من "المأزق العلماني" باستعمال لفظة "العلمانية"، ثم تعقيم محتواها بما يفيها. ومثال ذلك قبول جمعية متخرجي المقاصد بـ"قيام العلمنة التي لا تتعارض مع المعتقدات الدينية الاصلية".

¹¹⁷ في طلبتهم:

- حسن صعب في العديد من دراساته ومحاضراته، وبنوع خاص محاضراته في جامعة الروح القدس في الكسليك:
"المحاولات العلمانية في الدول الإسلامية المعاصرة" والتي نشرتها الجامعة في كتاب بعنوان "حول العلمانية" عام 1969، ومحاضراته في دار الفتوى عام 1971 عن "الإسلام وتوافقه مع العلمانية" والتي نشرتها جريدة لسان الحال في نشراتها 20-24-26 نيسان 1971
- بشير بيلاني في أبحاثه ومحاضراته، وبنوع خاص محاضراته في جامعة الروح القدس في الكسليك: "إمكان اعتماد العلمانية في لبنان" والتي نشرتها الجامعة في كتاب بعنوان "حول العلمانية" عام 1969
- محمد زهدي يكن جريدة "النهار" في 8 و 7/15 1975، وفي كتابه "لبنان وتحديات الحاضر"، دار يكن للنشر، بيروت

1978

- زكريا النصولي، في مقابلة له مع مجلة "الصيد" العدد 1691، 17-24 آذار 1977
- بهيج طيارة، في حوار مع مجلة "الصيد" العدد 1695، 14-21 نيسان 1977
- محمد المغربي، في كتابه الى مجلة "الصيد" العدد 1689، 3-10 آذار 1977
- غالب محمصاني، في ملحق جريد "لو ريفاي" تاريخ 4/8 1977
- محمد زكي النقاش، في تحقيق عن "العلمانيون" الذي قامت به مجلة "الحوادث" في عددها رقم 1061 تاريخ 7/3/11
¹¹⁸ بشير بيلاني، "إمكان اعتماد العلمانية في لبنان"، في كتاب "حول العلمانية"، الكسليك - لبنان 1969

د- دأب بعضهم على إعطاء علي عبد الرازق وخالد محمد خالد مثلين على سعي إسلامي حقيقي للعلمانية.

إن عبد الرازق وخالد أزهریان أحدنا هزة فكرية مزلزلة في زمنيهما لخروجهما على المفاهيم المتداولة.

فقد أصدر خمسة وعشرون عالما من علماء الأزهر "بالاجماع حكما مؤرخا بتاريخ 12 آب 1925 يقضي بحذف اسم علي عبد الرازق من سجل علماء الأزهر وعزله من جميع مناصبه القضائية والادارية للأسباب التالية، أولا: لدعواه أن الإسلام دين روعي وحسب، ثانيا: لقوله إن منصب محمد السياسي لم يكن جزءا من منصبه النبوي، وثالثا: لزعمه أن الخلافة لمنصب ديني دنيوي ليست واجبة"¹¹⁹. غير أن كتاب علي الرازق "الإسلام وأصول الحكم" في حاجة الى قراءة معمقة تفقه روحيته وتأخذ بعين الاعتبار الوضع السياسي آنذاك والذي تهيمن عليه رغبة الملك المصري فؤاد الاول - بدفع من الانكليز - في الجلوس على أريكة الخلافة بعد أن ألغتها رسميا الدولة التركية في شهر آذار من عام 1924. هذه القراءة توصلنا الى الملاحظات التالية:

- 1- إن ما هدف اليه المؤلف أساسا هو الـ"بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام". فقد دار الكتاب حول نقض الفكرة القائلة بأن الإسلام يأمر بنظام الخلافة أو بجمع المسلمين كلهم تحت سلطة حكومية واحدة أو داخل دولة واحدة. وينفي عبد الرازق بالتالي أن يكون النبي محمد ملكا أو حاكما هدفه إنشاء مملكة ودولة.
- 2- على الرغم من تشديد المؤلف على الطابع الرسالي والروحي للإسلام، إلا أنه لم ينكر "أن كل ما جاء به الإسلام من عقائد ومعاملات، وآداب وعقوبات فإنما هو شرع ديني خالص لله تعالى، ولمصلحة البشر الدينية لا غير"¹²⁰.

هنا يكمن الموضوع: جوهرها وتطلعا. فاما أن تعتبر الدولة نفسها، في المجتمع الإسلامي، قيمة على تطبيق هذه المعاملات والآداب والعقوبات، وإما أن تعتبر ذلك كله خضوعا فرديا وطوعيا من قبل المسلم. وبكلام آخر وبطريقة التساؤل: هل إن الدولة ملزمة بالتدخل عمليا وبواسطة القانون من أجل تطبيق ما يقتضيه الدين الإسلامي، أم أنها ملزمة بعدم التدخل؟ في الحالة الثانية، أين يصبح مبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، وكيف يتسنى للمسلم آنذاك القيام بتطبيق الشرائع الإسلامية إذ لم تكن أطر الدولة القانونية تسمح له به وتقرّ بشرعيته؟ والفارق بين الاثنين هو الذي يسمح أو لا يسمح باعتماد النظام العلماني في المجتمع الإسلامي.

- 3- لم يصل علي عبد الرازق الى حدّ الإقرار والاعلان صراحة أن حاكم المسلم يمكن أن يكون غير مسلم. ففي كلامه على الأيتين "أطيعوا الله

¹¹⁹ ماجد فخري، دراسات في الفكر العربي، ص 286
¹²⁰ الإسلام وأصول الحكم، في مجلة "الطلیعة"، نوفمبر 1971، ص 157

وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منهم... " (النساء 59)، "ولو رتّوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم... " (النساء 83)، يقول عبد الرزاق: "وكيفما كان الأمر فالآيتان لا شيء فيهما يصلح دليلا على الخلافة التي يتكلمون فيها. وغاية ما قد يمكن ارهاق الآيتين به أن يقال إنهما تدلان على أن للمسلمين قوما منهم ترجع اليهم الأمور"¹²¹.

4- إن الديني عند عبد الرزاق يمتصّ الدنيوي على صعيد الإيمان والممارسة المجتمعية معا الى حدّ يبدو معه الدنيوي وكأنه استحال الى ديني. وهنا جوهر التناقض الذي يقع فيه عبد الرزاق، مع ذلك التناقض الصريح حيث يرفض الاعتراف بانعكاس الممارسة المجتمعية، على نحو حتمي، على واقع نظام الدولة وتنظيمها.

أما خالد محمد خالد فقد كتب بعد ربع قرن تقريبا ما يتوافق مع أقوال عبد الرزاق السياسية. ففي كتابه "من هنا نبدأ" يعتبر خالد أن "الحكومة الدينية" وسيلة من وسائل التسلط لم تأت للناس إلا بالمآسي والآلام. لذلك فهو ينادي بـ"فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية. لأن الدين لن يقوى على تحقيق أغراضه السامية الا عن هذه السبيل. جاء الاسلام يدعو الى الحب وتمجيد الله والتوحيد بين البشر، وكل تلك الأغراض الدين الأساسية، وأي مساس لهذه الأغراض بالدولة؟... ثم إن التوحيد بين السلطتين الدينية والدنيوية يؤدي حتما الى تهديد الدين نفسه. فالدين عبارة عن حقائق روحية خالدة غير خاضعة لعوامل التغيّر والتحوّل. أما الأهداف والوسائل السياسية فليست من هذا النوع، بل هي عرضة للتطور والتبدّل المستمرين. فإذا لم نفصل بين الدين والدولة عرضنا الحقائق الدينية للتغيّر والتبدّل وربطنا مصيرها بمصير الأساليب السياسية المتحولة أبدا. وبهذا نكون قد أضررنا بالدين من حيث أردنا له النفع"¹²².

وقد تميّز خالد عن عبد الرزاق بالحرارة والحماسة. فكتاباته نوع من الوجدانيات السياسية أو النظرات المثالية في الشؤون العامة أكثر مما هي أبحاث بالمعنى العلمي للكلمة.

ومثل عبد الرزاق، يعتبر خالد أنه في كل ما يقوله يبقى متمسكا بالإيمان الاسلامي ومحتفظا بجوهره الروحي. ففي يقين الكاتبين أنهما يعملان على عصرنة الاسلام، ولكن من ضمن إصالته، أي إنهما ينطقان باسم الاسلام الصحيح. ولا شك في أن محاولتي عبد الرزاق وخالد تخرجان على المفاهيم التقليدية التي سادت الفكر السياسي – الاجتماعي الاسلامي في خلال التاريخ. ولكن التأكيد على أنهما لا بدّ مؤتيان الثمار العلمانية لأمر مبالغ فيه، وليس هناك ما يبرر هذا التأكيد. فقد سبقهما في التاريخ الإسلامي المعتزلة والفلاسفة. وكلنا نعرف ما آل اليه هؤلاء جميعهم.

¹²¹ المصدر السابق، ص 141 - 142
¹²² ماجد فخري، دراسات في الفكر العربي، ص 286

ثانياً – في المحاولات العلمانية

- أ- لا يمكن أخذ اليمين الجنوبية وألبانيا (والصومال الى عهد قريب) مثلين على محاولات تطبيق العلمانية في المجتمعات الاسلامية. الحكم في هاتين الدولتين ماركسي ديكتاتوري. والماركسية ملحدة. والاحاد ليس العلمانية.
- ب- إن تركيا ليست في حقيقة واقعهما الشعبي دولة علمانية.

إن ما فعله أتاتورك لا يعدو طبع الدولة بواسطة القانون بالطبع العلماني. وهو بذلك يكمل خط "التنظيمات" لجهة استيراد الفكر الأوروبي الغربي وإعلانه بواسطة النصوص القانونية¹²³ ويروي أحد كبار قضائنا ما قاله له الأتراك في أحد المؤتمرات الحقوقية في تركيا: إن هذه الدولة واقعة في مشكلة عويصة لا تدري كيف تحلها. ذلك أن الأتراك، وخاصة الريفيين منهم، لا يزالون يطبقون أمور أحوالهم الشخصية بواسطة "الشيخ". وهم بذلك يخالفون القانون ويسبغون على تصرفهم صفة اللاشرعية. فإذا اعتبرت الدولة كل ذلك باطلاً، فإن مشكلة اجتماعية – دينية – قانونية ستنشأ وتطال بالتسلسل الزمني كل أمور الأحوال الشخصية منذ نصف قرن. وإذا أقرت الدولة شرعية هذه الأمور ناقضت دستورها وقوانينها. ولطالما روى المسافرون برا الى أوروبا عبر تركيا كيف أن الأتراك يسألون المسافر ما إذا كان "مسلمين". فإذا كان مسلماً، ساعده. وإن لم يكن، أعرضوا عنه. أيكون أبناء مجتمع كهذا علمانيين؟

ج- خلافاً لما يعتقد بعضهم، فإن تونس باقية على الشريعة الاسلامية. وكل تطور تشريعي جوهري فيها إنما ترى له اجتهادا في النصوص القرآنية نفسها:

1- إذا أصبح القضاة المدنيون صالحين للنظر في أمور الأحوال الشخصية بدل القضاة الشرعيين ومشايخ الدين، فإن هذا تدبير لا يتنافى البتة مع الإسلام. ليس في الإسلام قضاء مدني منفصل عن القضاء الشرعي. في الإسلام قضاء. وليس في الإسلام رجال مدنيون ورجال دين. في الإسلام رجال مسلمون. لقد اختلطت الأمور في أذهان بعض الناس، وخصوصاً الغربيي التربيّة والثقافة والنزعة الى حدّ أنهم ينسبون الى الإسلام تراتبية كهنوتية على غرار ما هو موجود في المسيحية. وهذا خطأ فادح. ليس في الإسلام مثل هذا وليس فيه مؤسسة دينية كمؤسسة "الكنيسة". (هناك موقف متميز في المذهب الشيعي، يعود الى تنظيم أمور الشيعة في "غياب الامام" وانتظارا لعودته).

2- يظهر انعطاف تونس نحو العلمانية أو استمرارها في خط التشريع الإسلامي، في قانونها الشهير المتعلق بالأحوال الشخصية.

لقد بقي هذا القانون، في النتيجة، إسلامياً، لا تناقض فيه مع المبادئ القرآنية الأساسية. ذلك أن المشترع التونسي أفاد كثيراً من اجتهادات المذاهب الإسلامية

¹²³ المسيحيون في تركيا لا يتجاوز عددهم مئة وثمانين وخمسين ألفاً من أصل ما يفوق الثلاثين مليوناً من السكان. (انظر الدراسة – الوثيقة التي نشرها اندره بوتار في مجلة "الأكسبريس" الفرنسية بتاريخ 30 كانون الأول 1978، من الصفحة 54 الى الصفحة 58). فقد تخلصت تركيا من المسيحيين اليونانيين بعملية تبادل السكان المشهورة غداة الحرب العالمية الاولى، وتخلصت من ارمن والسريان والكلدان بسلسلة المذابح والتهجير المعروفة.

المختلفة (ومن تناقضاتها، أحيانا) ومن المذهب المالكي، بنوع خاص، مع سعيه الى مناسقة المبادئ الأساسية الإسلامية مع الحقائق والحاجات المعاصرة للشعوب الإسلامية في ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع. وفي ما يلي بعض المبادئ الأساسية لقانون الأحوال التي تفيد أن تونس بقيت على خطها الإسلامي المناقض للعلمانية:

- تسمية مهر للزوجة هو من شروط صحة الزواج¹²⁴
- "من الموانع الشرعية بالنسبة للزوج هو أن يكون غير مسلم أو أن تكون الزوجة غير كتابية أو مرتدة..."¹²⁵ ذلك "أن تتزوج المسلمة بغير المسلم هو من المعاصي العظمى - كما لا جدال أن الشريعة الإسلامية تعتبر الزواج باطلا من أساسه".

- الذكورة شرط أساسي من شروط الولاية على القاصر¹²⁶
- "إن المسلم الذي يتجنس اختيارا منه بجنسية تخرجه عن أحكام دينه يكون مرتدا"، "والمرتد كافر وخارج عن ملتته، ولا توارث بين ملتتين"¹²⁷
أحكام الإرث هي الأحكام الواردة في القرآن، ولم يتغير فيها شيء¹²⁸
- إن إلغاء مبدأ تعدد الزوجات ليس خروجاً على الشرع الإسلامي. بل هو تطبيق له. تعدد الزوجات ليس أمراً مستحبا في الإسلام. وهو مربوط بشرط قاس هو العدل. فإذا انتفى إمكان تحقيق العدل بين نساء الزوج الواحد انتفت شرعية تعدد النساء.

ومن أجل منع تعدد الزوجات، انطلق التشريع التونسي من واقع الحياة المعاصرة ومن ظروفها ومقتضياتها ليبرهن على الصعوبة الكلية، وحتى المستحيلة، في تطبيق العدل. ولكنه استند، أساسا، الى فتوى دينية صريحة تركز بدورها على الأيتين التاليتين: "... فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع وإن خفتم الا تعدلوا فواحدة" (النساء 3). "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم..." (النساء 130)

إن كل ما قامت به تونس لا يخرج، إذا، عن الأصول الإسلامية. ولا يمكن أن تتصرف تونس إلا على هذا النحو. فقد صرح رئيس الوزراء التونسي الى مجلة "جون أفريك"¹²⁹ بأن "الحزب (الاشتراكي الدستوري) كان دائما عاملا لليقظة الإسلامية. فقد عمل قبل الاستقلال على تجميع أقصى ما يمكن تجميعه من قوى وشباب بهدف إنقاذ الإستمرار الإسلامي، إنقاذ إسلامية تونس. وبعد الاستقلال، واستمرارا لهذا الخط، وبعد العودة الى الينابيع الإسلامية أخذ الحزب على عاتقه طبع سياسته الاجتماعية بكل ما هو تطوري في الإسلام. والمجتمع الذي نبنيه هو

¹²⁴ محمد الطاهر السنوسي، دائرة التشريع التونسي، مجلة الأحوال الشخصية، طبعة سادسة عام 1970، ص 15

¹²⁵ المصدر السابق، ص 16، و"الجزائر" الثورية والتقدمية تطبق المبدأ نفسه. فقد روت مجلة "الحوادث" البيروتية (العدد 1134، الجمعة 28 تموز 1978، ص 66 - 67) أن الرئيس الجزائري السابق بومدين تدخل في قضية زواج فتاة جزائرية تدعى دليلة زيغار من شاب فرنسي اسمه دنيس ماشينو، مؤيدا فساد زواجها باعتبار أنها مسلمة وأن الشاب غير مسلم. وبحسب القانون الجزائري، المبني على الشريعة الإسلامية، لا يجوز لمسلمة أن تتزوج غير مسلم.

¹²⁶ المصدر السابق، ص 19

¹²⁷ المصدر السابق، ص 51 - 52

¹²⁸ المصدر السابق، ص 50

¹²⁹ الهادي نويرة، مجلة "جون أفريك" العدد 954، 18 نيسان 1979، ص 40

المجتمع الذي يدعو اليه الدين الإسلامي في هذه الآية: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس..." (البقرة 143).

السلوك المعاكس للعلمانية

فضلا عن الحركة الإسلامية الشيعية في إيران التي أوجدت "الجمهورية الإسلامية"، وقبلها بسنوات، يقوم في غير بلد إسلامي سعي حثيث لتتقية النصوص القانونية من "الشوائب" التي دخلت عن طريق التأثر بالتشريعات الأوروبية. ففي مصر، على سبيل المثال، ومنذ العام 1970، تألفت لجان مهمتها تحرير القوانين مما قد يكون دخل فيها من أمور تتعارض والشريعة الإسلامية¹³⁰. وفي كانون الأول من العام 1978، أقرّ مجلس الشعب المصري في المادة الثالثة من نظام المجلس الداخلي أن "يلتزم أعضاء المجلس في ما يجرّونه من مناقشات وما يتخذون من قرارات بأحكام الدستور والقانون، كما يلتزم أعضاء المجلس بمبادئ الشريعة الإسلامية والحفاظ على الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي وتحالف قوى الشعب العاملة والاشتراكية الديمقراطية"¹³¹. ولم يعارض إقرار هذه المادة سوى نائب واحد، وهو ماركسي. والجميع يعلم ما للسلوك المصري – ومصر أكبر الدول العربية – من انعكاسات على العالم العربي الإسلامي.

وبالروحية عينها صدر في مجلة القوى المسلحة في المغرب في أيار 1968، مقال جاء فيه: "إن فصلا بين المجتمع الإسلامي والدولة لا يمكنه أن يظهر كدليل ما على تحديث الدولة، إذ ان نتيجة هذا الفصل تظلّ بعيدة عن أن تكون مقبولة، حتى في أوساط النخبة المتطورة في البلاد الإسلامية المتقدمة، كما في المغرب. فالرجوع الى الإسلام يشكل دائما ضمانا أخلاقية لا بدّ منها. إن الدخول في دقائق هذه القضية يظهر أنها معقدة، وإن معطيات تقدم الدولة في البلاد الإسلامية لا يمكن أن تحلل في ضوء التعابير الغربية"¹³².

ومما يلفت النظر في مجال طبع تحركات العرب بالطابع الإسلامي أن مؤتمر وزراء التربية والتخطيط العرب الذي عقد في أبو ظبي في شهر كانون الأول من العام 1977، أوصى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم "أن تتولى القيام بدراسة مستفيضة لمؤامات الحفاظ على البيئة وصيانتها في ضوء تعاليم الإسلام وتراث الحضارة الإسلامية..."¹³³.

وفي الخلاصة، ماذا علينا أن نستنتج؟

¹³⁰ جريدة "الأهرام" القاهرية، تاريخ 15 كانون الأول 1978، "خطوات عملية... لتطبيق الشريعة الإسلامية" كتبه عزت عبد المنعم.

¹³¹ جريدة "العمل" البيروتية، 1978/12/19، ص 8، نقلا عن وكالة الأنباء أف.ب.

¹³² حول العلمانية، ص 124

¹³³ جريدة "النهار" البيروتية، الثلاثاء 1977/12/13، ص 13

- 1- في الإسلام، يتمازج الديني والديني. والنظرة التي تفرّق بينهما إنما تنطلق من معايير مسيحية غربية. فثنائية السلطة الدينية – السلطة المدنية مفهوم غريب تماما عن الإسلام، ولا يأتلف البتة معه. فالمونولوتية جوهرية في الهيكلية الإسلامية. ثم علينا ألا ننسى أنه خطأ كبير أن تقاس حضارة بمعايير حضارة أخرى.
- 2- الإسلام لم يحدد شكل الحكم، بل مضمون الحكم. وكل تغيّر وتطور يطال جوهر هذا المضمون يطال حتما الإسلام نفسه ويطعنه. والعلمانية تطال جوهر هذا المضمون، مما يجعلها متعارضة تماما والإسلام.
- 3- إن مبدأ حرية الضمير يمنع وضع المسلمين أمام الحائط المسدود، وإلزامهم بتبني ما يتناقض ودينهم.
- 4- ان الربط بين موضوعي الطائفية والعلمانية في لبنان في حاجة الى غير توضيح وتدقيق، خصوصا بعد أن نعيد النظر في مفهومنا للطائفية.

في يقيننا أن "الطائفية" عندنا (في حقيقتها الموضوعية لا في تصور الناس لها) هي الشرارة المتولدة عن الصدام بين من اختلف عندهم مفهوم الانسان والمجتمع والتاريخ، إنطلاقا من قناعات مبنية على معطيات دينية إيمانية. والمطلوب، على صعيد التنظيم السياسي – الاجتماعي، ليس تغيير "المفهوم"، ولا هيمنة جماعة على أخرى. المطلوب أمران. الأول، نزع أية تصادمية تولّد هذه "الشرارة". والثاني، تعميق الأبحاث المؤدية الى فهم حقيقي لطبيعة "الطوائف" في لبنان والمشرق، في أبعادها الانسانية كافة. ولعل في ذلك حظا يسمح بالانتقال من جو التجريح المتبادل الى المشاركة الواعية والعلمية في السير نحو الحلّ الصحيح أو الحلول الصحيحة للأزمة الوجدانية التي نتخبّط فيها.

الخاتمة

لن نعيش ذميين...

بعد هذا العرض الموضوعي للقضايا والأحداث التي ذكرناها، وقد دعّمناها بالمستندات الثقة، نقول: ما الغرض الذي نرمي إليه؟

الجواب بسيط جداً، ولكنه غنيّ في أبعاده الانسانية: لا نريد أن نكون ذميين. هدفنا أن نبقي أحراراً ومواطنين كاملين المواطنة. وهذا ما نطلبه لكل مواطن، بصرف النظر عن أي فارق في اللغة أو الأصل أو الدين أو المذهب أو المعتقد السياسي.

وما رأيناه في هذه الصفحات هو أن الإسلام لا يقبل له ندًا على الصعيد الاجتماعي – السياسي – القانوني، وأن المسلمين لا يقبلون أن يساويهم أحد. "وكنتم خير أمة أخرجت للناس" (آل عمران 110).

وما دام المسلمون يؤمنون بأنه "لن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً" (فاطر 43)، وبأنه "وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم..." (الأحزاب 36)، فإنما تعليلاً بالسراب يكون قول القائلين بأن "نصبر" بانتظار ذلك اليوم الذي يقبل فيه المسلمون مبدأ المساواة التامة بين جميع المواطنين، مسلمين وغير مسلمين.

في رأي هؤلاء الناس أن التغيير الجذري في نفوس المسلمين سيتمّ حتماً وحكماً على الرغم من أحكام القرآن الصريحة، وعلى الرغم من المساعي الفاشلة حتى الآن على هذا الصعيد. ويستشهد هؤلاء الناس بتاريخ التطور الانساني. ففي يقينهم أن منطق تطور الحياة هو الأقوى. وهو سائر في خط الحرية والمساواة مهما طال الزمن ومهما أصيب بنكسات. ولا بدّ من أن يفرض هذا المنطق اجتهادات وتفسيرات جديدة كل الجدة على النصوص القرآنية.

أما جوابنا على الناصحين بالصبر فهو أن ثمن الاتكال على هكذا افتراض قد يكون فادحاً جداً. ولسنا نعلم هل سيبقى مسيحيون في العالم الإسلامي حتى مجيء اليوم الموعود. صحيح ان المجتمعات البشرية مرّت بتغييرات جذرية في خلال تاريخها "الطويل". ولكن ليس من المؤكد أنه في المستقبل المنظور ستصل المجتمعات الإسلامية الى ما يصوره لنا اولئك المستقبليون. إن من الحكمة والواقعية السياسية والتاريخية أن نتعامل مع المعلوم لا مع المجهول.

وتجدر الإشارة الى أن الكثيرين من أبناء هذا الشرق مصابون بالذهنية السحرية، تلك الذهنية التي تتصور شيئاً أو أملاً، ثم تدفع صاحبها الى التصرف وكأن هذا التصور أصبح حقيقة واقعة.

فالمعلوم يقول لنا إننا "أخل ذمّة" بنظر المسلمين، وإننا دونهم قيمة في المواطنة: حقوقاً وواجبات.

أما المجهول فيفتنّ في التخيل وفي استحضار الحلول الذهنية فحسب. مبدأنا أن نعالج، اليوم، قضاياها من المعطيات التي بين أيدينا، وأن نترك للأجيال المقبلة أن تعالج قضاياها انطلاقاً من معطياتها التي تكون بين أيديها. فلا تجميد للتاريخ ولا احتكار له.

ثمّ...

إذا كان المسلمون في مصر وسوريا والعراق وتونس والجزائر... وفي الربع الأخير من القرن العشرين، يتصرفون تجاه المسيحيين كما يتصرفون، ويعلنون الإسلام ديناً للدولة ولرئيس الدولة، ومصدراً رئيسياً للتشريع، فهل يكون قريباً ذلك اليوم الذي يميّز فيه الإسلام، بصراحة وعلى نحو عملي، بين الدين والسياسة؟ وإذا كان مسلمو لبنان، وهم أرقى مسلمي العالم العربي، قد اضطهدوا مواطنيهم المسيحيين على النحو الذي ذكرناه، وحالفوا المسلم "الغريب" ضد مواطنهم المسيحي، وقد فعلوا ذلك ونحن في الربع الأخير من القرن العشرين، فهل يكون قريباً ذلك اليوم الذي يعتبرون فيه "مواطنيهم" للمسيحي في لبنان قبل "أخوتهم" للمسلم غير اللبناني، خصوصاً وأنهم يعتقدون أنهم سيصبحون أكثرية عددية في لبنان في المستقبل غير البعيد؟ فمذ الثلاثينات، وعلى أساس هذا الاعتقاد، يقول محمد جميل بيهم: "إن أحوال المسلمين الشخصية وإقبالهم على الزواج تكفلان لهم عمّا قريب أكثرية عددية. وكلما مرّ الزمن ازدادوا كثرة ولا سيما لأنهم أقل من سواهم ميلاً للهجرة"¹³⁴.

إن القضية كلها تكمن في إيجاد الحلّ الذي يرتاح إليه ضمير المسلم وضمير المسيحي. والمطلوب من العقل في لبنان - وفي العالم الإسلامي - استنباط "صيغة" دستورية توفّق على نحو طبيعي بين تطلعي محقّين:

تطلع المسلمين الى أن يكون لهم حاكم مسلم ونظام مستمد من الشريعة الإسلامية.

وتطلع المسيحيين (وجميع المنادين بالعلمانية) الى أن يسود مجتمعهم قانون علماني.

ولا يكون ذلك إلا إذا قبِلَ كل فريق بحقيقة الواقع، وفهم تطلع الفريق الآخر، وتصرف بوحى هذا الفهم.

على كل حال،

وأياً كانت احتمالات المستقبل،

فإن المسيحيين اللبنانيين اختاروا موقفهم النهائي (ولعلّ سائر المسيحيين في العالم الإسلامي يقرّون الاختيار نفسه)، ولن يعودوا عنه مهما تهددتهم أخطار: لن يسمحوا بتطبيق نظام "أهل ذمّة" عليهم. علماً،

بأن المسيحيين اللبنانيين هم أصيلون في هذا المشرق الخلاق،

وبأنهم يرفضون رفضاً باتاً، غير قابل لأي بحث ونقاش، التنازل عن حقهم في التلاقي والتعامل المحب، المخلص، المثري مع أهل المشرق وسكانه، مسلمين كانوا أم غير مسلمين، عرباً كانوا أم غير عرب، وعن حقهم في الخدمة وفي الشهادة لإيمانهم المرتكز على المحبة،

وبأنهم يصرون على أن يكونوا فاعلين وفعّالين وروّاداً في مساعي التنمية والتحرر الانساني وفي الوصول الى أقصى درجات الاحترام للانسان - الشخص ولكرامته وحرّيته.

لذلك،
فليعلم جميع الناس من أقاصي الأرض الى أقاصيها، أن المسيحيين لن
يهاجروا

ولن يركعوا
ولن يكونوا "أهل ذمّة"

وليكن ما يكون.

ومن يعيش ير.